

ترجمة

القديس يوحنا الدمشقي

تأليف

الاب لويس هوكه اليسوعي



المطبعة الكاثوليكية للاباء المرسلين اليسوعيين
في بيروت سنة ١٨٩٥

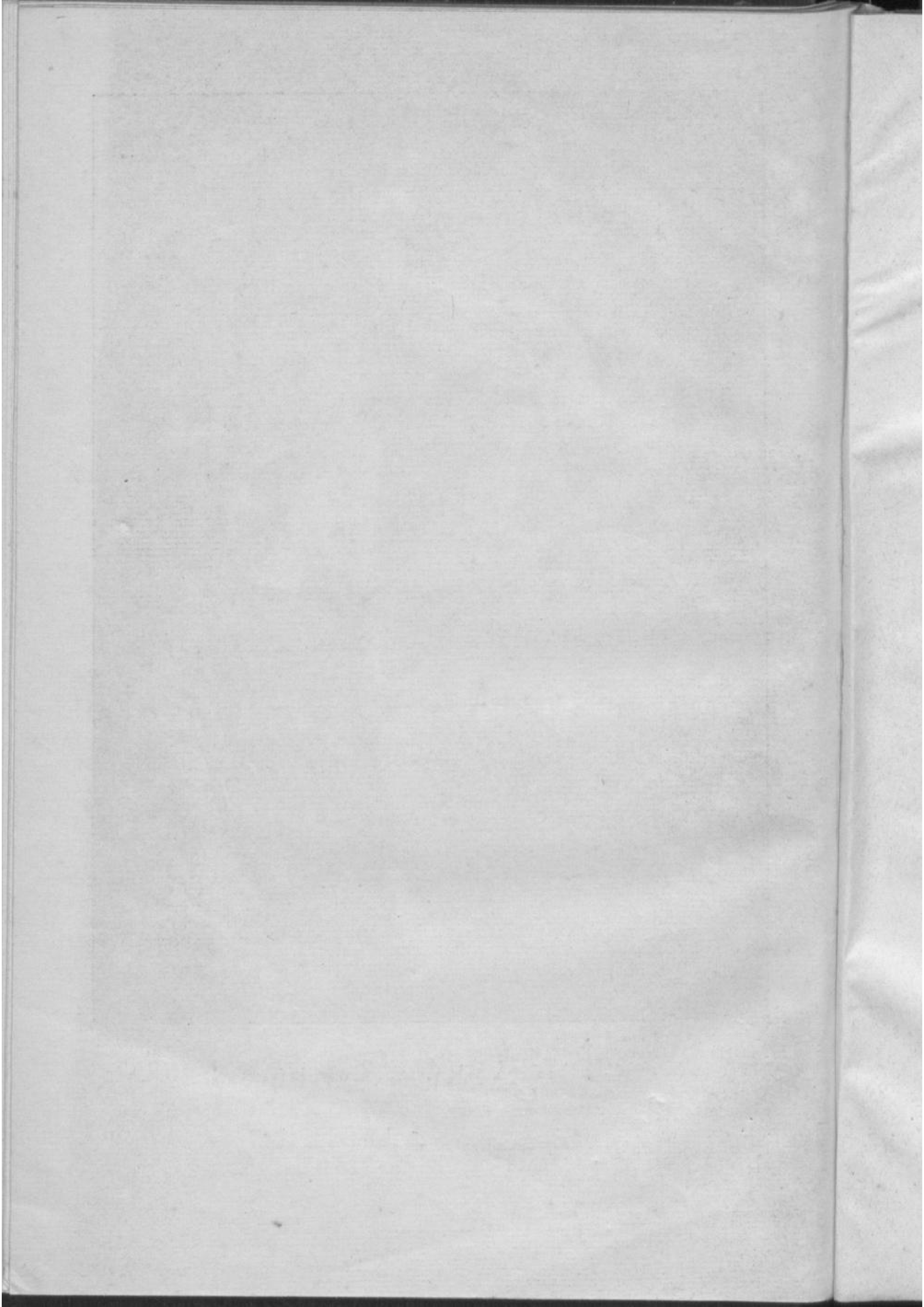
مقدمة

لمؤلف هذه الترجمة

الحمد لله العجيب في اوليائهِ . المكرَّم بتكريم اصفائهِ . الذي خصَّ عبيدَهُ المُخلصين بحُسن ثنائهِ

اما بعدُ فاني لم اجد هديَّةً أَتحف بهـا الدماشقة والسوريين افخر من أَن أَنشر بين ظهرانيهم سيرة صفيّ الله وملفان كنيستهِ القديس يوحنا الدمشقيّ قصداً لتبيان قوة الايمان وصولة الاعتقـاد وتمثيلاً لما يظهر بهِ المسيحيّ يوم يضطهد لدينهِ وحين تحارب عقيدتهُ هذا ولا اطلب بذلك الاَّ تمجيد الفادي ونشر فضائل وليِّهِ الكريم راجياً ان يكون صنيعي هذا موجباً للفوز بجنَّة الخلود والظفر بدار النعمة مع مَن احسن التجارة بالوزنات فنال من سيدهِ جميل الجزاء والالتفات فهو حسبنا ونعم الوكيل

Nihil obstat.
† Fr. GAUDENZIO
Arcivesc. di Cabasa, Vic. e Deleg. Apost. della Siria.





PHOTOGRAV. IMPR. CATH., BEYROUTH.

القديس يوحنَّا الدِمَشْقِيّ

شفاء يدهِ المقطوعة (راجع الصفحة ٣٠)

الفصل الاول

في دمشق وطن القديس يوحنا

ان مسقط رأس هذا القديس الجليل هي دمشق الفيحاء. ولا يخفى ان هذه المدينة من اشهر المدن القديمة الَّا ان اوائل تاريخها مجهولة وقد جاء في سفر التكوين ان ابانا ابرهيم عليهِ السلام جدَّ في طلَب اعدائهِ الى نواحيها فادركهم في حوبة قرية في شماليها وهي عند اكثر العلماء المؤرخين قرية برزة فان اسمها يطابق الحادثة. قد ورد في كتاب الملوك الرابع ان تجلَت فلاّسر ملك الاشوريين فتحها عنوةً ونكَّل في اهلها وجلاهم الى مدينة قِير في بلاد ماداي

وقد افاض الانبياء في حسن موقعها وجودة تربتها وترى ارميا النبيَّ نفسهُ يكاد يتأسَّف على محاسنها اذ امرهُ الله ان يلعنها

أمَّا نبيّ الله حزقيال عليهِ السلام فكثيرًا ما تفاخر بثروتها الوفيرة وخمرها اللذيذة العذبة ونسائجها الموشَّاة البهية الالوان البديعة الرونق التي كان يتّجِر بها تجّارها ويعرضونها للمبيع في أسواق صور المدينة العظمى التي كانت منفردة بثروتها وغناها في تلك الاعصار. وكانت دمشق حاضرةً للملوك سورية المذكورين في العهد القديم. ثم خصَّها الله جلّت عنايتهُ في اوائل النصرانية بما خوّلها شرفًا مؤبّدًا فاليها قد التجأ الحواريّون الاطهار عند ما طُردوا من اورشليم. ودمشق هي الاولى التي قد سمعت تعاليم الاناء المصطفى بولس الرسول المعظَّم (غلاطية ١: ١٧) على عهد الحارث الرابع ملك النَبط (من السنة ٩ قبل المسيح الى السنة ٤٠ بعد المسيح) ولم يفتأ المسيحيون الدماشقة الى يومنا هذا يتقاطرون افواجًا الى الموضع المقدّس الذي روت التقاليد أنَّ ذلك الرسول العظيم قد اهتدى فيهِ الى الايمان المسيحيّ ويجثون ثمَّة على ركبهم تبرّكًا وتيمنًا

هذا ولكنَّهُ ترع توالي الاعصار من محاسنها ما لا يُعدّ ولا يحصى فانَّ معامل سلاحها المشهورة قديمًا بعمل الحراب والاسنّة القواطع والسيوف البواتر ومناسج الحرير والثياب السندسية التي نُسبت اليها وضُربت بها الامثال في الآفاق شرقًا وغربًا قد عفَت واندرست ولم يبقَ لها ذكر على الالسنة وانَّ تتابع الدواهي عليها ولا سيما فتح تيمورلنك اياها نحو سنة ١٣٨٠ للميلاد قد عرَّى أراضيها من بهائها وأخلى جوانب أوديتها ومنحدرات الجبال المحدقة بها وترع ما عليها من الغلائل اللازوردية والحلل الزمردية اذ استأصل ما بها من النبات البهيج ومن الاشجار الباسقة والافنان الوارقة والرياض النضرة ممَّا كان يأخذ بالقلوب وتروق بهِ الابصار الى ان دُعيَت دمشق جنة الارض ونعيمها

هذا ولم يبقَ شيء من تلك الاشجار على الجبال التي تجاوزها بل انحصرت الأنبتة والاشجار في غوطتها من سفح جبل الشيخ الى جوار قرية ضُمَير. ولذا لا بدّ من ان تخامر الحيرة المسافر الآتي من ناحية الديماس على طريق بيروت مارًّا بارضٍ فسيحة بائرة حين يصل وادي الهامة فتتغيّر هيئة الارض ويرى بغتةً بدل البوادي الجرداء الجنانَ الغناء والحدائقَ التي تنعقد على افنانها النواظر. فانهُ يسير نحو الساعتين بين الجنان النواضر على عُدوتي برَدَى الذي يتشعب منهُ اربعة شعاب وعندئذٍ يودُّ ذلك المسافر المارّ بهذا الوادي لو يُتاح لهُ ان يقضي اطيب حياتهِ تحت ظلال تلك الاشجار البواسق والرياض البهجة الأوراق التي تتدفَّق من تحتها المياه على حصباء تلمع كالدرّة او تتلألأ كنجوم المجرَّة كاسية تلك الرقعة مطارف الزهر ومهدية للناس اطايب الثمر

وكثيرًا ما شُبّهت دمشق وجنَّاتها التي تجري تحتها الانهار بجنَّات عدن والتقاليد متضافرة على ان الفردوس الارضي الذي فيهِ خُلق ابوانا الاولان كان بسفح جبال دمشق وفي هذا المعنى انشد الشاعر:

إن تكنْ جنَّةَ الخلودِ بارضٍ فدِمشق ولا تكون سواها

ودمشق يحيط بها شمالًا لبنان الشرقي وغربًا جبل الشيخ المعتّم العام كلهُ ببياض الثلج وجنوبًا سلسلة آكام رملية جرداء لا نبات بها تنتهي بارض الهجانة وشرقًا المرج فضُمَير فالبرية . فاصبحت دمشق وبقعتها في وسط هذه الاراضي المجدبة اشبه بواحٍ او جنة غناء ترى فيها شجر الجوز والزيتون والتين والمشمش على اصنافهِ والرمّان والتفاح والعنب والخوخ والدُّرّاق والكمّثرى (النجاص) والتوت على اجناسها واصنافها والحور والصَّفصاف والدُّلب والدَردار ملتفَّة الاغصان تتعانق متمايسةً وتتساند من ثقل احمالها وكثرة قطافها كأن المثمرة تقول بلسان حالها للمارّ بقربها : حيّهل ايها المسافر وهلمَّ ايها الزائر وطب نفسًا بثمري الناضر وغير المثمرة تقول : هلمّ واسترح قليلًا وذق لذة الوسن تحت ظلال افناني القائمة كالقُبب . وفوق السطوح داخل الدور فراديس جلّنار وياسمين وزنبق ورياحين تبهج كل فؤاد حزين قائمة بين ماء يجري حولها متدفقًا كالسلسبيل . واما غوطتها فهي تمتدّ مدّ البَصَر وتتجلّى في وسطها القرى كانها الدرّ فهي كما قيل :

لاحت قراها بين خضرة ايكها كالدرّ بين زبرجدٍ مكنونِ

على أن اكثر السيّاح والمسافرين يكتفون من الاخبار عن دمشق بوصف حسن موقعها وما بخارجها وارباضها من المناظر البهيجة الحسنة وربما اخذ المنتقدون على دمشق ما يجدون فيها من ضيق الطرق وكثرة العطفات والاقذار وظلمة شوارعها وازقتها ووطوء الحيطان وتقارب الجدران فيستولي على صدر المتجوّل فيها ضيق عظيم يدعوه الى العدْو وسرعة السير تخلّصًا مما هنالك من الروائح الكريهة . هذا حال اغلب احيائها ولكن الشوارع العمومية السلطانية واسواق المدينة الداخلة قد تحسّنت كثيرًا والاصلاح فيها جارٍ بمزيد الهمّة والنشاط بعصرنا هذا لمزيد التفات ذوي الامر اليها وسعيهم بشؤونها واهتمامهم بتحسينها

على انك اذا دخلت داراً من دورها ولا سيما المشهورة بين دور المسلمين والمسيحيين والاسرائليين فتندهش ابصارك وتحتار افكارك برونق مناظرها المبهجة ومحاسنها المنعشة ومواقعها المدهشة . فانك حالما تدخل ترى الارض مفروشة برخام مزيَّن ابيض وسمَّاقي و"عنجوني ورمادي واسود منقوشة على ابدع ما يكون وعرصة الدار واسعة الانوار بها ساطعة . والالوان من الدهان لامعة والمنازل مزيَّنةً والأشجار الطيبة الرائحة قائمة باربع زوايا الدار و برك الماء في صحن فنائها ينصبّ فيها الماء الزلال متدفقاً من انابيب كأفواه السباع (ولذلك يسمّون الانبوب سبعاً) وترى البيوت مزيّنة بالانوار والرياحين من ورد ونسرين وجلّنار وياسمين معرّشة على الجدران وازاهر اغصانها المتهدلّة كالدرّ والمرجان حتى انك ترى اكثر النوافذ والشبابيك والحيطان خضراء حمراء بيضاء لاندماج الزهر والورق والمغارس الخزفية فيها الانبتة العطرية على كثرة اختلافها والوانها وازهارها مبثوثة على البرك وحول المنازل السفلى المدعوة مربعات وفي داخلها ولا سيما الايوان المدعو عندهم (ليوان) فلا جرم انك تحسب نفسك حينئذٍ انك في غرفة من غرف النعيم لما يدهش ابصارك من حسن المنظر وطيب الاقامة ولذيذ الرائحة المنبعثة من ورودها ونرجسها وزنبقها ومنثورها

ولكل بيت من البيوت المشهورة بهوٌ يسمونهُ قاعةً هو في غاية الاتقان هندسةً ونقشاً وتصويراً بصحنهِ وعلى الجدران والسقف بالعاج والبلور وغيرهما من الالوان الذهبية وخلافها . والعتبة مرصوفة بالحصباء من كل ضرب من ضروب الرخام وفيها ايضاً حوض ماء (يقال لهُ بحرة) من رخام مختلف الالوان ينصبّ الماء فيهِ والفرش فيها من النسائج الشرقية كالهندية والفارسية والشامية في تمام الحسن والرونق والبهاء . فاذا نزل على واحد من اصحاب هذه الدور ضيف كريم يستقبل شتاء في غرفة في الطبقة العليا (يسمّونها فرنقة) وصيفاً في القاعة المذكورة في الاسفل . والسهرات تُقضى عندهم صيفاً بالايوان المزيّن بالنباتات

العطرة التي تدعوهم بلسان حالها ونضارة اغصانهـا وشذا ازهارها وخرير ماء حياضها الى حمد ربّ السماوات والارض . لله ما اطيب صرف ليالي تموز في تلك المواضع حيث يذوق الانسان لذّة الراحة والانتعاش بما هنالك من الرطوبة ويتمتّع بصره وينجلي كربهُ وكدرهُ بمشاهدة الانوار منعكسة على الماء والزهور مطيفة بهِ كالهالة بالقمر تبرق وتلمع زاهية من اشهى ما خلق الرحمان حتى انهُ ليخال نفسهُ تحت قبّة سماويّة مزيّنة بالمصابيح الفلكية . هذا وصف دمشق بالاختصار والاجمال ولو اردنا الاسهاب والتفصيل في وصف ما بها من المحاسن مع التجاور عن حرج طرقها وتلاصقها لما وسع ذلك كتابٌ كبير حسبكَ هذا دليلًا وجيزًا على ما بدور دمشق من الابهة والرونق الشرقي

وبين هذه الابهة والرونق وُلِدَ ونشأ البرّ العالم الصالح القديس يوحنا الدمشقي الذي اضحى شمس المشرق كما جاء من بعدهِ توما الاكويني شمسًا للمغرب فهذا هو الاكليل البهي والتاج الفاخر الذي يمكن لدمشق ان تتفاخر بهِ على وجه الزمان وتطوّق بهِ جيدها كقلادة منضودة من كل اصناف اللآلئ والحجارة الكريمة وتستضيء بنبراس تعاليمهِ وامثالهِ

الفصل الثاني

في نسب القديس يوحنا الدمشقي وعترتهِ

ان دمشق عين المشرق وقد صارت في القرن السابع للميلاد مقام الخلافة الاسلامية وكان فيهـا في ذلك العصر كثير من المسيحيين الّا ان بني منصور امتازوا على من سواهم بشدّة التعلّق بعروة الدين المسيحيّ منذ امدٍ مديد وفضلوا سائر من بدمشق من الأُسَر المسيحيَّة حسنَ سلوكٍ وبعدَ صيتٍ وذلك انَّ بني منصور تقلَّدوا زمام المراتب العالية واستووا على كراسي المناصب السامية اعصارًا متوالية وقاموا حقّ القيام بامور كثيرة من المهـام ورُزقوا الحظوة عند الخلفاء

والمكانة عند رؤساء الاحكام ونفعوا البيعة منافع جمَّة باعمالٍ عظامٍ . قال ابن بطريق الاسكندري في كتاب لهُ روى فيهِ اخبار عصرهِ : ارتقى الى المقام البطريركي الاورشليمي اثنان من بني منصور وهما سرجيوس وإليَّا . كان الاول على عهد الملك ثاوفيلوس . والثاني على عهد باسيليوس المقدوني ملكي قسطنطينية

وذكر ايضاً ابن بطريق انَّ جدَّ القديس يوحنا كان متوليًا امر دمشق قبل دخول العرب اليها . وزاد ابن العميد انهُ لمَّا اشتدَّ الامر على المدينة طلب من خالد بن الوليد امانًا لمن بدمشق من الروم فنالهُ منهُ في وقت فُتح قسمٌ آخر من المدينة عنوةً . ولمَّا تمَّ الفتح اخذ منصور من بقي من الروم ولحق بهرقل الملك الى انطاكية (١) إلَّا ان منصور لم يلبث ان رجع الى وطنهِ فاستخدمهُ العرب في ديوانهم

ثم خلفهُ ابنهُ سرجيوس ويسمّيه العرب سرجون او سرجه بن منصور الرومي وقد ذكر الطبريّ في تاريخهِ (٢ : ٢ : ٨٣٧) انهُ كان يكتب لمعاوية بن يزيد وانه كان على ديوان خراجهِ وذلك سنة اربع وستين للهجرة الموافقة لسنة ٦٨٣ للميلاد . وبقي في وظيفتهِ الى ايام عبد الملك بن مروان وقد جاء في كتاب موارد الادب المحفوظ في خزانة كتب البريتيش موزيوم في لندرة « انَّ ابن منصور النصراني كان يتولَّى لعبد الملك بن مروان ديوان الشام » . وقال ابن عبد ربهِ (العقد الفريد ٢ : ٣٢٢) « انه كان كاتب عبد الملك على الخراج والجُند » . وقد ذكرهُ ابن عساكر في تاريخ الشام وزعم انهُ اسلم على يد معاوية ابن سفيان مع ان ذلك يناقض ما جاء في تاريخ الطبريّ والشهادات الواردة آنفًا على انهُ كان نصرانيًا بعد معاوية بن سفيان بزمان طويل . فضلًا عن انَّ الامر يخالف ما نعلمهُ من طباع سرجيوس وكونهُ ترك اولادًا من اشدّ المتحمّسين

(١) راجع تاريخ ابن بطريق في النسخة الخطّية المحفوظة في مكتبتنا الشرقية الصفحة ١٤٦ وتاريخ ابن العميد في نسخة اخرى خطّية في المكتبة نفسها الصفحة ١٩

في دين النصرانية منهم منصور ابو القديس يوحنا الذي نكتب ترجمته. وقد زاد ابن عساكر انَّ له كنيسةً كان بناها خارج باب الفراديس وان الكنيسة باقية الى زمانه. وورد ايضاً ذكر سرجون هذا في كتاب الاغاني (٧ : ١٧٣) فقال عنه انَّ الاخطل الشاعر النصرانيّ كان ينزل عند قدومهِ على عبد الملك في دار سرجون كاتبهِ. وذكر في محلّ آخر (١٦ : ٧٠) ان سرجون كان من ندماء يزيد بن معاوية (راجع ديوان الاخطل الصفحة ٣٤٧). فتدلّ هذه الشهادات كلُّها على ما كان عليه سرجون من النفوذ عنه خلفاء بني اميّة. واما مؤرخو الروم فقد اطنبوا بذكرهِ وشادوا بثنائه نخصّ منهم ثاوفانس المؤرخ الشهير انهُ كان قال: في السنة السادسة ليوستينيانس انسان يُدعى سرجيوس بن منصور شديد الحبّ للنصرانية وكان هو خازناً عامًّا للسلطان عبد الملك مقرَّباً عندهُ مغموراً بنعمهِ مستجاب الطلب لديهِ لصداقتهِ وامانتهِ في مصالح مولاه. حتى انهُ لمَّا طلب اليهِ ان يأمر بعدم نقل اعمدة كنيسة الجسمانية في بيت المقدس الى خارج فلسطين وقد كان الخليفة امر بنقلها ألغى امرهُ الاول واصدر امرًا ثانيًا ببقاء تلك الاعمدة في موضعها

واجمع مؤرخو ذلك العصر على أن سرجيوس هذا كان جدَّ القديس يوحنا. والدلائل متضافرة على أن والد هذا القديس المعظَّم كان يدعى منصورًا. واليك ما قيل فيهِ في ترجمة ولدهِ القديس يوحنا الدمشقي المخطوطة في القرن الثاني عشر بيد يوحنا بطريرك اورشليم: ان العناية الالهية كانت قد احرزت للطوباوي يوحنا الدمشقي والدًا مشهورًا بتقواه حميد السيرة سليم السريرة شفيقًا على الفقراء وكثير الصدقات طيب الخصال فريد الخلال عزيز المثال مع وفرة ما عندهُ من الاموال فاعتبارًا لمناقبهِ التي سارت بها الامثال ومجازاةً لفضائلهِ التي فاح شذاها وانتشر عبير ريَّاها في اطراف المملكة فضلًا عن طهارة معيشتهِ ومكانة حقّهِ ومتانة صداقته واخلاص طويّته ورساخة عزمه فيّ دفع الباطل والمكافحة عن

العدل قلّده الخليفة رتبة من أسمى الرتب وحسام حكمٍ نافذٍ وهي كما يقول المؤلف: رتبة ادارة ديوان المكاتبات . وفي اثناء رئاسته عليها ولد ابنهُ يوحنــا وقد قرّر البولاندستيّون وهم الفاحصون عن سير الابرار الذين لا يُخالف ظنهم ولا يُمارى في رأيهم في هذه المسائل انَّ مولد هذا القديس المعظَّم كان في السنة السادسة والسبعين بعد الستمائة للميلاد وهذا التاريخ موافق كل الموافقة للحوادث التي سيجري ذكرها

وكان منصور هذا ذا مالٍ لُبد ورزقٍ يدفع النكد حتى ان املاكهُ لم تكن فقط بغوطة دمشق وضواحيها وظواهرها وملحقاتها بل جازت الى ما وراء الاردن اي الى اعمال اورشليم وديار فلسطين لكنه لم تُبطرهُ وفرة ثروتهِ ولم يكن ينفق مالهُ على الملاهي الدنيوية الدنية والولائم الفاخرة العالمية ولا على الاطعمة الشهية والمشروبات اللذيذة لكنهُ خصّص معظم ثروتهِ لافتداء الأسرى المسيحيين من ايدي الغزاة وأصحاب الفتوحات الذين كانوا يحسبون اسرى عندهم كل من كان يقطن البلاد التي يفتحونها عنوةً . وبعد ما كان يفتديهم ويخلّصهم من الأسر ورقّ العبودية كان يطلق لهم الحرّية ويبيح لهم الذهاب الى حيث ارادوا فعلى هذا النحو كان متجرّد القلب عن غنى الدنيا وثروتها منصرفًا بكلّيتهِ الى اجتلاب رضوان الله عزَّ وجلَّ ومن ثمَّ يسوغ لنا القول ان الله رزقهُ لخالص حبّهِ لجلالهِ ولدهُ هذا الذي خلّد لهُ صيتًا طيّبًا بوفرة علمهِ وسمو قداستهِ وذكرًا صالحًا لذرّيتهِ ولوطنهِ يبقى ما طلعت الشمس . فطوباكِ يا دمشق طوباكِ فانكِ قد حزتِ شرفًا خالدًا عن نبت فيكِ واعتزى اليكِ

فلما ولد هذا الطفل اهتمَّ منصور ابوهُ الفــاضل كل الاهتمام بتطهيرهِ بمياه المعمودية المقدّسة . وقال كاتب ترجمتهِ المذكور آنفًا ان الاحتفال بعموديتهِ لم يخلُ من الصعوبة في ذلك الزمان نظرًا للاحوال الحرجة التي كانت تتطلب مزيد الحكمة ووفور الفطنــة والمداراة لِما كان محدقًا بهم من المشاكل العسرة

غير ان والديه تبصّرا قبل كل شيء في اخذ الوسيلة لتتميم هذا الفرض المسيحي لما طُبعا عليه من التديّن ولذا اقتحما المصاعب وعمّدا ولدهما وصيّراه ابنا لله باحتفالٍ عظيمٍ وابّهة لا مزيد عليها

وكان منصور يعرف حقّ المعرفة واجبات التربية الصالحة وفروضها وحقوقها . فلم يكن ليبالي ان يصيّر ولده فارسًا مغوارًا او بطلًا صنديدًا من الكماة والجنود الرماة ليحوز شهرة في الآفاق وينتشر له صيت في الشام والعراق بل اهتمّ بادئ بدء بتحسين اخلاقه وترويض طباعهِ وتهذيب حواسهِ واتقان احوال نفسهِ فاخذ يسعى في طلب استاذ ماهر ومهذِّب حاذق وحكيمٍ فاضل مشهور في الكمالات بين الخواصّ والعوام على انّ الله تعالى قد استجاب سؤله وطلبتهُ بنوع عجيب وهاك الخبر كما ذكرهُ يوحنا الاورشليمي كاتب ترجمتهِ الذي وقع اليهِ كتاب من كتب سيرتهِ مخطوطًا بالعربية ضمَّنهُ واضعه الاحوال العجيبة والطرق الغريبة التي اتخذتها العناية الالهية لتسوق الى دمشق مَن انار بتعاليمهِ وهذّب بمثالهِ وخرّج في الآداب هذا الطفل المبارك الذي ارتشف علم القداسة مع رضع الحليب من ثدي والدتهِ

وذلك انّ صولة الخلفاء من بني أُميَّة سلاطين دمشق تقوّت نحو اواخر القرن السابع ورسخ ملكهم وامتدّ حكمهم وخضع لسيفهم القاصي والداني وابعدوا فتوحاتهم وعزّزوا امصارهم وسارت الرهبة امامهم شرقًا وغربًا فغزوا الارض نحو المغرب وخرجوا من سورية كالضراغم من عرينها وأذلّوا مصر وليبية وبرقة وكل اقاليم افريقية الرومانية الى ما وراء مرّاكش وادخلوها تحت سلطانهم ونشروا فيها سننهم واحكامهم ومنها خرجوا الى جزائر البحر المتوسط كصقلّية وقبرص واقريطش . ووثبوا شرقًا كالاسود الضائرة على العراق ولواحقهِ وبلاد ارمينية وفارس حتى اقاصي الهند والحقوا بهذه الاقاليم جُزر بلاد اليونان كرودس وما جاورها حتى ارتعشت الارض وسكّانها امامهم وهلعوا فرقًا وارتجّوا وجلًا واخذوا

يفكّرون في إعداد حيلة تقف في وجوه جيوشهم وتكفّ حدود سيوفهم البتّارة فلم يتوفقوا الى الحيلة لان هؤلاء القوم ساروا بصوت الواحد القهار الذي يدخل الليل بالنهار ويغيّر سطح الارض ووجهها وهو الواحد الباقي على الأدهار . وكنت ترى كما جاء في التاريخ آثار صياقلهم وبقايا اسنّتهم وضربات مناصلهم بكل قطر داسوه ومصر وطئوهُ . وكانت جنودهم تعود بالغنائم والسبايا سائقين امامهم الى دمشق حاضرة ملكهم اقواماً لا عداد لهم من المسيحيين يبيعونهم عبيداً بالمزاد في الاسواق والشوارع أو يقتلونهم بحدّ السيف

وكان ذات يوم فيما بين هؤلاء الاسرى المنكودين رجلٌ طلياني عليهِ رداء طويل اسود ودلائل الحشمة ظاهرة على محيّاه وسمات الحسب والنسب لائحة عليهِ وكان يجذب اليهِ انظار المارة بطول قامتهِ واعتدال قدّهِ ووضاءة طلعتهِ وكان الاسرى المسيحيون يدعونهُ قزما وكانوا قبل ذهابهم الى المقتل يجثون أمامهُ بكل ورع وحشمة ويقبلون يديه بأتمّ الاحترام متوسلين ان يتضرّع مصلياً لاجلهم مستمطراً عليهم سحائب البركات السماويّة مستسقياً لهم غمام الرحمة الالهية وكان العرب مندهشين لما يرون لهُ من الاكرام والاجلال عند ذويهِ وكانوا يدنون منهُ ويسألونهُ عن رتبتهِ ومقامهِ فكان يجيبهم ان رتبتي ليست عالمية وانما هي رتبة الهية ووظيفة سامية سماويّة لاني كاهن وحبرٌ للعلي . وما انا الّا راهب حقير ومسكين قضى معظم حياتهِ في اقتباس العلوم الفلسفية ولا سيما الحكمة المسيحية التي تعلّمنا ان نحب الله تعالى فوق كل شيء . وبينما هو يخاطبهم كانت الدموع الحارّة تسيل من عينيهِ حتى ترقّ لها اشدّ القلوب صلابةً

فجاء في تلك الاثناء والد يوحنا على مألوف عادتهِ المشهورة وشفقتهِ الموصوفة لابتياع بعض هؤلاء المنكودين فرأى من قزما ما قد ذُكر فرثى لحالهِ ورقّ لهُ ودنا منهُ وعانقهُ وقال : اخيّ العزيز المفديّ بدم ابن الله الزكي علامَ تبكي ولمَ تنوح بقلبٍ مجروح وتتنهد الصعداء كانك آنس . شجاع يا رجل الله الحيّ شجاعٍ

واصطبر لحكم ربك ايها الاخ الحبيب . ألَا قُل لي هل انتَ باكٍ تأسفاً على هذه الحياة الدنيّة حياة الدنيـا الزائلة ألا يُنبئني ثوبك ويعلمني بانك قد متَّ لهذا العـالم اذ انك انفتَ منهُ وترهبت متجردًا عنهُ وزاهدًا بلذاتهِ . فالتفت اليهِ قزما عندئذٍ واجابهُ بقلب حزين جريح وصعداء يهطل وراءهـا وابل الدمع : صدقتَ بقولك ايها الرجل الفاضل وبالحقّ نطقتَ يا ايها الشهم الباسل اذ قلت اني متّ عن العالم . وهيهـات ان يروعني الموت او يهولني الاسر والنكال واني لعالمٌ انَّ حياة المسيحي انما هي جهـاد على الارض ولكنَّ فكرًا خامر لبّي في هذه الساعة فافعمني حزنًا وكآبة وذلك اني كثيرًا ما اطلتُ النظر في كتب العلماء وتفقَّهت في تآليف الحكماء كافلاطون واريسطو صاحبي الفلسفة والبيان واحسنت درس العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والموسيقى والفلكية كالهيئة ورصد النجوم وقرنت هذه العلوم الى درس الكتب الالهية وعلم الكلام واللاهوت . واليوم ارى نفسي مأسورًا أُساق للموت كالشـاة لا يؤمل من بقائهـا جدوى كأني درست ما درست وتعلَّمت ما تعلَّمت بلا طائل . وها انَّ تعبي في طاب العلوم ذهب ادراج الرياح . مع اني كنت متأملًا ان ينتج من دروسي الكثيرة التي ثابرت عليها ايامًا وليالي طويلة نتـائج جمة الفائدة كثيرة العائدة لمجد الدين وخير القريب فاني لاجل هذه الغـاية مرّنت نفسي كثيرًا على تحسين الكلام وتهذيبه واشبعت عقلي وذاكرتي من المسائل الدقيقة وعوّدت لساني افصح الكلام وابلغ المعاني . ألا قل لي يا ايها اللبيب ألا يليق بي ان اتحسَّر بعد اعمالٍ واشغالٍ ودروس شاقة واسهار طوالٍ تمرّ مر الرياح وقد كنت آملًا ان أُبشر بعض الكفرة وعبدة الاصنام لاهديهم الى الايمـان واصيّرهم اصدقاء للفادي اذ احملهم واميل بهم الى ان يحبُّوا الله تعـالى محبة صادقة قلبية معطيًا لهم ولغيرهم من ضعفاء بني الايمان ما قد وهبني الرحمان من كنوز علومهِ إذ علّمنى ما لم اعلم وسوَّل لي ان اقتبسهُ بمواصلة الدروس الشاقة

وسهر الليالي . وقد هالني فوق كل شيء توثيب السيّد لهُ المجد للعبد البطال الذي طمر الوزنة ولم يتّجر بها . والان ارى نفسي ايها المولى الفاضل قريبًا ان انتصب ممتثلًا امام منبر قضائهِ قبل ان انفع احدًا بعلومي وافيد الغير بوزنتي ألا تدرك الآن سبب تأسفي بكآبةٍ على عمرٍ ضاع سدى وثمرٍ جُني قبل النضج وزهرٍ يذبل ويقطع قبل ان يخرج من اكمامهِ

فكان كلام قزما هذا لمنصور بمنزلة وحيٍ الهي فانهُ استوعبهُ ووعاهُ وحالما انقطع قزما عن الكلام ذهب منصور مسرعًا الى دار الخليفة واستأذن فدخل وطلب اليهِ ان يمنحهُ الكنز المدفون داخل السجون وهو قزما الاسير الحزين فاجابهُ الخليفة الى ما طلب جزاء لخدمتهِ الصادقة للخلفاء من بني أُميّة . وهكذا خرج قزما من حبسهِ بعد قليل من الزمان شاكرًا وحامدًا بالقلب واللسان ودخل دار منصور الذي تسبّب في اطلاق حريّتهِ ولسانه يلهج بذكر محامدهِ .

فقال لهُ منصور : يا رجل الله انت في الدار نظيري لا اكفُّ يدك عن شيءٍ سوى ما حرّمهُ الله وما اسألك الّا المساعدة على تربية هذين الولدين وهما يوحنا هذا ولدي العزيز وقزما سميُّك وهو غلام يتيم مسكين من اورشليم قد كفلتُ تربيتهُ وادخلتهُ داري ليكون كولدي برضاءي واختياري فاني اسلّمهما لك واكلفك يا رجل الله ان تعلمهما شيئًا من علومك وتهذّب عقولهما وطباعهما باهتمام ونشاط . واوصيك ان تعلمهما خصوصًا رأس الحكمة ومبدأ العلوم اي ان يتّقيا الله ويحباهُ سرًّا وجهرًا فان هذا كما تعلم هو اول العلوم وأُسّها وكل علم بدونهِ باطل ولا قوام لهُ . فعندئذٍ اخذ قزما يشكر منصورًا ويثني عليهِ . وليس لقلم واصف بليغ أن يصف امتنانهُ للمحسن اليهِ كما وحمدهُ لربّهِ اذ رأى كيف انّ غوامض التدابير الصمدانية اخرجتهُ من الاسر الى عيشة هنيئة ومنافع تحصل بهِ جزيلة وفيّة وآثار تخلّد ذكرهُ باعمالٍ سنية . فهكذا نال ما قد كان يرجو ويتمنّى . قال كاتب ترجمتهِ : فسكن قزما فرحًا في جوار منصور واخذ يدرّس ولديهِ بغاية ما امكنهُ من

الجدّ والنشاط . ولم يلبث الغلامان النجيبان ان نبغا في العلوم وبرعا تحت ارشادهِ لحصافة عقلهما ودماثة اخلاقهما وطاعتهما لاستاذهما ووعيهما لشروحه ودروسه حتّى صارا من اشهر الطلبة في العلوم العالية على اختلاف فروعها واتّساع طبقاتها وحدودها حتى دُعيا بعد قليل كوكبي دمشق وألّف احدهما قزما كتباً نفيسة من جملتها تأليفٌ كاملٌ في النجوم والافلاكِ . وأمّا يوحنا الشديد الرغبة المتوقّد الجنان فقد حوّل ميلهُ الى ما هو اعلى من ذلك وعكف على درس الفلسفة المسيحية وعلم اللاهوت حتى فاق اهل عصرهِ فان نفسهُ المزدانة بالمناقب المسيحية المخلوقة للتنعم باللذات السماوية ارتفعت عن الدنيويّات الى أوج هذا العلم المقدّس فانشأ المؤلفات التي انارت البيعة بنورها وغذتها بثمارها الناضجة فانها كانت ولم تبرح الى اليوم حياةً لنفوس عديدة تستقي من مواردها الصافية ينابيع التعاليم الخلاصية فضلًا عمّا تجدهُ فيها من المباحث الدقيقة في اهمّ الامور النظرية والمسائل اللاهوتية

ولننظر قليلًا قبيل ختام هذا الفصل الى المنزل السعيد حيث كان الاستاذ والتلميذان متحدّين كأنهم نفس واحدة في اجسامٍ متعدّدة وعينُ الله ترعاهم وتكفيهم مكايد الخبثاء تحت سماء المشرق البديع المنظر ايام كان فم الذهب وباسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزي وغيرهم من اساطين العلم واركان الفضل قد خرجوا من دار الدنيا وضرب النسيان على ذكرهم حتى أوشك ان يزول . وكانت كتب اريسطاطاليس وافلاطون قد تلاعبت بها ايدي الضياع فلم يكد يبقى لها اثر ولا طالب في ذلك الزمان بل صارت نسياً منسيّاً . غير انهُ كان وقتئذٍ بدمشق الفيحاء ايام ضرب الجهل فيها خيامهُ لانقراض علمائها واندراس مدارسها انسان جليل يؤثر الخمول ويتحاشى الظهور والاشتهار زهدًا في مجد الدنيا يُعدّهُ الله كنورٍ في الظلماء ليضيءَ وينير كل ذي قلبٍ سليم . ألَا هو الشابّ البارع الذي كان وقتئذٍ يقتبس بلذّة التعاليم الطاهرة من راهب طلياني

ماهر ساقتهُ حوادث الزمان الى هذه الديار بصفة اسير . فكانت تلك الغرسة الصالحة تنشأُ في الخلوة وتمتدُّ اغصانها وتينع ازهارها وكانت تلك الجذوة يتزايد سعيرها حتى سطعت اخيرًا وانار لهيبها العقول النائمـة في ليل الضلال . وبجملة الكلام قد اختار يوحنـا الدمشقي مولدًا الكاثوليكي معتقدًا ليجعلهُ من كبار علماء الكنيسة ويفتح للعرب المسيحيين بل وللمشرق كلهِ ابواب فلسفة اريسطو ويدخلهم الى رياضها النضيرة ويعطّرهم بروائح ازهارها الطيبة ويمكنهم من اثمارها اليانعـة . هذا هو شفيعكِ يا دمشق ونصيرك فاليهِ في الشدائد اضرعي وبنفحات ذكرهِ تضوّعي

الفصل الثالث

في دار الخليفة

لم يذكر المؤرّخون كم من سنةٍ اقام الانبا قزما الشيخ بدار منصور معلّمًا ليوحنـا واخيهِ بالتربية قزما الاورشليمي . الّا ان هذا البارّ لمَّا علم انهُ قد اتمّ تعليم يوحنا واخيهِ حنّت نفسهُ الى السياحة وتشوقت العزلة في البراري قصد ان تقضي بقية حياتهِ في دير الزهّاد وصومعة الناسكين القانتين لربّ العالمين فتقدّم ذات يوم الى والد يوحنا وقال لهُ : ايها المحسن الفـاضل قد تمّت الان امانيك اذ نلتَ مرادك وبلغت مرامك فان غلاميك هذين قد نبغا في العلوم وكادا ان يُخملا ذكر معلمهما فحمدًا للملك الوهاب الذي جذب اليهِ عقليهما واسبغ عليهما سوابغ نعمتهِ التي طارت بهما محلقةً الى اوج الحكمة والفلسفة فلم يبقَ لي سوى ان اطلب اليك ان تسمح لي مكافأةً لما لي من التعب عليهما بالتخلّي عن امور الدنيا والذهاب الى بعض اديرة الرهبان حيث انقطع بكل امن واوفر راحة لامور دار البقاء مطلع انوار العلم الحقيقيّ الذي هو اعلى واوسع من علوم دار الفناء

فادرك منصور كلام قزما البـارّ واطلق لهُ الحرّية في الذهاب وانعم عليهِ

فخرج قزما من دمشق متوجهًا الى دير القديس سابا. والله وحده يعلم كم عزّت هذه الفرقة على قلب يوحنا وكم قاسى من الالم بانفصاله عنهُ. فان قلبهُ الشكور الودود العارف الجميل كاد يتمزّق ويخرج من جوانحهِ عند ما رأى استاذهُ متأهبًا لفراقهِ. وانما الله تعالى اراد ان يهيئهُ بذلك للقاء شدّة اعظم وامتحانٍ اجسم اذ توفَّى اللهُ والدهُ منصورًا بعد ذلك بقليل من الزمان. فعظمت عليهِ هذه البليَّة التي حلّت بهِ على اثر فرقة معلّمهِ قزما واذاقتهُ مرّ الاوجاع وكادت تخور لها قواهُ. الَّا انه اذعن لحكمهِ تعالى وبارك اليد التي ضربتهُ بضربتين متواليتين سوَّدتا الدنيا في اعينهِ وكدَّرتا كاس صفاء عيشهِ

أمَّا قزما الشيخ فلم ينسَ تلميذه العزيز بل كان يقوّيه بكتاباتهِ ويرشدهُ بوصاياه نائبًا عن ابيهِ المرحوم ولم يزل يجري على عادتهِ هذه الى ان توفَّى اللهُ هذا العبدَ الصالح فانتقل الى رحمة ربهِ في دير القديس سابا بشيخوخة صالحة قضاها في اعمال البرّ وممارسة كل الفضائل الرهبانية

واما والدة القديس يوحنا فضرب المؤرخون صفحًا عن ذكرها ولعلّ سبب سكوتهم انها توفيت لمَّا كان ولدها لم يبلغ رُشدَهُ فاعرض الكتَّاب عن وصف محامدها. الَّا ان الثمرة الطيبة التي حملت بها تنبئ عن سمو فضائلها وحسن مزاياها فجازاها الله عن تربيتها الصالحة لولدها واجزل ثوابها في نعيمهِ بين الابرار

ولم يبقَ مع يوحنا بعد وفاة والدهِ الَّا اخوهُ بالرضاع قزما الشاب فكان يسلّيهِ في حزنهِ ويعزّيهِ في كآبتهِ وبؤسهِ وهما يعيشان في غاية الائتلاف واخلاص المودّة منفردَين عن العالم ملازمين العُزلة في دار والدهما التي جعلاها اشبه بكنيسةٍ لطول استمرارهما في الصلاة وبمدرسةٍ لعكوفهما فيها على الدرس. فبقيا مدّة على هذه الطريقة الى ان شعر قزما جاذبًا خفيًا يجذبهُ الى الحياة النسكية فصمّم ان يفعل ما نوى نابذًا وراء ظهرهِ ما كان يرجو نظراؤهُ من تبوُّءِ المناصب العالية فعرض على يوحنا نيتهُ هذه فلم يجسر ان يقاوم ارادتهُ تعالى وكان هو يودّ لو

يستطيع ان يتبع صاحبهُ في زهدهِ الَّا ان اشغالهُ في دار الخلافة صدّتهُ عن اتمام مرغوبهِ. وهكذا اضطرّ الصديقان ان يفترقا ولكن بالمكان فقط لا في الحبّ والمشرب ولم يفتأا على البعد متحدّين رأيًا ومشربًا الى ان قضى حكم الله بجمع شملهما ثانيةً كما سيأتي ذكرهُ في اثناء هذه الترجمة

وقد ذكرنا آنفًا ان يوحنا كان مستخدمًا في دار الخلافة وذلك ان الخليفة هشام الأُمويّ الذي تولَّى الخلافة من سنة ٧٢٤ الى السنة ٧٣٣ للمسيح لمَّا رأى ما فقدت الدولة بفقد منصور والد القديس طلب لهُ خلفًا من عترتهِ يتقلّد مرتبتهُ العالية فلم يجد احدًا أولى بهذه الوظيفة السامية من ابنهِ يوحنا لِما ذُكِر لهُ عن حسن مناقبهِ وصادق أمانتهِ وجليل فضائلهِ فضلًا عمَّا طُبِع عليهِ من سموّ الادراك وحصافة العقل. فطاب هشام بهِ نفسًا وأراد ان يُدخلهُ في خدمتهِ ويجعلهُ من عظماء دولتهِ. فاصدر امرهُ باستحضارهِ الى القصر وخوّلهُ مرتبة ابيهِ وقرّبهُ الى شخصهِ وجعلهُ من خواصّهِ مفضّلًا اياهُ على غيرهِ من ذوي مِلّتهِ. وكان يوحنا في اوّل الامر يحاول ان يصرف الخليفة عن قصدهِ محتجًّا لهُ بانّ لا ميل عندهُ الى مناصب الدولة وانهُ مولع بالدرس شديد الاكباب عليهِ ميّال الى العُزلة والانفراد عن الناس. فذهبت حُجَجهُ هدرًا لانّ الخليفة اصرّ على استخدامهِ ولا قوّةَ للمحكوم على مخالفة الحاكم فاضطرّ يوحنا عندئذٍ الى الانقياد الى مولاهُ والاذعان الى امرهِ. فجعلهُ السلطان وكيل دَخلهِ وخرجهِ كما روى البولنديستيون ومستشارًا اول (πρωτοσύμβουλος) كما ورد في كتاب اول المؤرخين الذين سطّروا سيرة القديس وكانت هذه المرتبة تقتضي لصاحبها شرفًا عظيمًا وتجعلهُ مقرّبًا الى الخليفة محترمًا عند القاصي والداني في جميع الامصار الأُمويّة وكان الخليفة يعهد اليهِ بمهامّ امور المملكة ويستخدمهُ لمراسلة الملوك الاجانب لا سيما ملوك الروم

وأمَّا الباري تعالى الذي كان زيّن القديس بالمواهب الشريفة وآتاهُ بَسطةً في الفضل والعلم فقد جعلهُ من اشدّ المحامين عن دينهِ وكرامة انجيلهِ واعدّهُ

لمناصبة من يشنّون الغارة على حقائقهِ فخاض في المناظرات الدينية وصدم آراء المبتدعين الهراطقة وحمل عليهم مصلتاً سيوف الحجج القواطع وخرج من المعركة ظافرًا بجنود ابليس غير مبـالٍ بما اصابهُ من الشدائد والمحن في تلك المواقع الجدالية. واليك تفاصيل هذا الخبر

انّ ازمّة المملكة الرومية القسطنطينية كانت قد صارت في سنة خمس عشرة وسبعمائة للميلاد في يدي رجل منافق اسمهُ لاون الايصوري الارمني الذي ازمع ان يعيد الى النصرانية ايام الاضطهاد السود التي اصابتهـا وهي في مهدها. وكان هذا الرجل طمّاعًا لئيم الطباع سيّئ الاخلاق لكنهُ جسورٌ جريٌ مُتعنّت مع ما أُوتيهُ من ذكاء العقل وشديد السطوة

فهذا الجندي الخامل الاصل كان قبلًا من باعة البهائم وتجّار الحيوانات ولمّا نزل القحط بوطنهِ بلاد ايصورية التابعة لبلاد الارمن وضربت المجاعة هنالك اطنابها هاجر يرتاد لهُ مكانًا يعيش فيهِ في اقاليم المملكة. فاكتتب في الجندية وتقدَّم في مراتبها الى ان قضت لهُ الايام ان يتبوَّأ مقام السلطنة ويلبس تاج المملكة. وذلك انهُ تلطّف في الحيلة وبالغ في احكام الوسيلة حتى اخذ صولجان تلك المملكة من يدي ملكها الضعيف تاودورس. فتذكر يومًا كلامًا جرى فيما بينهُ وهو غلام وبين يهوديٍ في سياق جدال على اكرام الصوَر المقدّسة لانهُ اذ كان مسافرًا واليهوديّ قال لهُ هذا: أيُّها الغلام ان صرتَ يومًا من الايام ملكًا على هذه البلدان الواسعة ألا تحرقنَّ هذه التماثيل الكفرية والصُوَر الخشبية. فقبل لاون رأي اليهودي وكان عمرهُ وقتئذٍ اثنتي عشرة سنة. ولما صار اليهِ زمام الملك اتخذ كلامهُ نبوَّةً فاضحى مبتدعًا محاربًا للصوَر منذ ذلك الحين. وحالمـا استوى على عرش المملكة اعلن رأيهُ في ذلك واصدر امرهُ ودعا مجلس الشيوخ لاستماع تقريرهِ وهو هذا: اجلالًا لله العليّ القدير حافظ المملكة المقدّسة ومؤيّدهـا بعزهِ ونصرهِ اني آمر ان تُرفع الصوَر والتماثيل من كل الكنائس

والمعابد العمومية والخصوصية ومن كل موضع ومكانٍ وُجدت فيهِ وتكسر وتُطرح وقودًا للنار

فلمَّا سمع الشيوخ والشعب هذه الاوامر الكفرية اعتراهم الانذهال وأخذتهم الدهشة والحيرة . فاخذ الملك يتملقهم تارةً ويتوعدهم أُخرى ويكرههم على انجاز اوامرهِ النفاقية . فجُمعت صُوَر السيد المسيح وتماثيلهُ وصور والدة الله العذراء الطوباوية والقديسين وكُوِمت في الاسواق والشوارع وأُحرقت بالنار . وأمَّا الذهبية والفضية وما كان من المعادن الثمينة والكؤوس والاواني المقدسة المختصة بالبيعة والحجار الكريمة الثمن واللآلئ فضمها الى خزائنهِ الملكية . فبُهِتَ المؤمنون من فظاعة هذا العمل النفاقيّ واستشاطوا غيظًا وتغيّروا عليهِ ولكنَّ نُصراء هذا المضطهد الجديد تعصبوا معهُ وصاروا يدًا واحدةً وحكموا على المضادّين لأوامرهِ بالموت والنفي . فاشتدّت جسارتهُ وثقلت وطأتهُ واتصلت بهِ الوقاحة الى ان أَحرق مع الصوَر والتماثيل جمًّا غفيرًا من اهل الايمان القويم . وجرى هذا الفعل الفظيع في القسطنطينية وبلاد اليونان وايطاليا واستولى على كامل المملكة كرب عظيم وحزن شامل جسيم . فعندئذٍ اخذت الحماسة والغيرة من قلب يوحنا الوزير الخطير بسلطنة دمشق كل مأخذٍ فصاح بل زأَر زأرة الاسد وخاض ميادين الجدال مجاهدًا في سبيل الله واصفيائهِ ومنتصرًا لهم ممن اجترأوا على اهانتهم مشجعًا القلوب الضعيفة ومشددًا العزائم الرخوة ودعا كل المسيحيين لينفذوا رأيهُ ويجروا وراءهُ

الفصل الرابع

مقاومة القديس يوحنا للاون الايصوري ومناصبتهُ لهُ

ولما ظهرت البدعة الجديدة اصطفى الله لكنيستهِ حبرًا جليلًا زيَّنهُ بصفات فريدة وقلَّدهُ سيف سلطتهِ ليذلّل المتجبرين ويكبح ظلمهم ألا وهو غريغوريوس الثاني خلف القديس بطرس على كرسيهِ الرسولي. وكان اوَّل ما سعى فيه عظيم الاحبار هذا انهُ اعاد لرومية وايطاليا استقلالهما فاخرجهما من سلطة ملوك القسطنطينية. وكتب في عين ذلك الوقت رسالة حبرية قرَّر فيها القواعد الكاثوليكية وزكَّى العقيدة المسيحية. ووجّه براءتهُ الى لاون الايصوري محارب الصور وبيَّن لهُ فيها ان لا حقّ لملوك الارض ان يسنّوا سننًا دينيّة اذ ليسوا بقضاة الايمان فيثبتوا احكامًا اعتقادية وينسخوا او يرسموا ما أحبُّوا

وأمَّا لاون الايصوري المبتدع الجديد فغضب من هذه الرسالة وحنق من هذه المقاومة الجديدة وحاول ان ينزع عن الحبر الروماني تاجهُ ويعدمهُ الحياة فخاب املهُ واخفق مسعاهُ. فلما رأى الخيبة دخل من طريق آخر ليتوصل الى نجاح قصدهِ وتحقيق مرامهِ فاجتذب الى رأيهِ احد رؤساء الشمامسة اسمهُ اثناسيوس الارشيندريت فجعلهُ نصيرًا لبدعته واسيرًا لارادتهِ. ثم حاول ان يستميل الى مقالته الفاسدة ودعوته الكفرية بل الجنونية القديس جرمانوس بطريرك قسطنطينية. فلما دُعي هذا القديس الى دار الملك قال للاون: انَّ الله كان اوحى اليَّ ان سيأتي زمنٌ تُكسَر بهِ التماثيل المقدّسة وتُمزَّق صُوَر اولياء الله وتلقى وقودًا للنار الَّا اني لم اكن لأتصوَّر ان مثل هذا الامر الفظيع والفعل الشنيع يحدث في عهدك فتشوِّه بهِ ايامَ ملكك ودولتك. فقال لهُ الملك: وفي ايام ايّ ملكٍ اذًا كنت تظنّ انهُ سيقع. فقال القديس جرمانس: في ايام ملك يُدعى كونون. فقال الملك

المجد: صدقتَ فيما نطقت واجدت فيما اجبت فان اسمي بالمعمودية كونون . فقال البطريرك القديس : فان كنت ايهـا الملك قد صمَّمت على عزمك فاعلم ان كل من يأثم اثماً فظيعاً مثل هذا لا تعدُّهُ الكنيسة الّا كدجّال ولا تحسبهُ الّا مضطهدًا حقيقيًا ومنافقًا جاحدًا لسرّ الفداء سرّ تجسُّد كلمة الله . ثم اخذ يذكرهُ المواعيد التي وعدها عند جلوسهِ على عرش المملكة امام الله خالقـهِ والكنيسة أمّهِ بان لا يبتدع شيئًا في امور الدين . فسخط لاوُن على البطريرك القديس وطردهُ من كرسيهِ لمدافعتهِ الصادقة عن الايمان واقام مقامهُ اثاناسيوس المرائي الدخيل . واصبح الشعب القسطنطيني كالشاء بين يدي المضطهد واعوانهِ . ثم وُضِع السيف في المؤمنين وفشـا القتل والنهب فيمن لم يطيعوا اوامر الملك

فخرجت من قسطنطينية اخبار تلك الفظائع وطارت على السنة الناس من رائح وغادٍ حتى ملأت الأمصار وكثر الكلام فيها بديار الشام وكان تتصدّع لها القلوب ولا سيما قلوب الدماشقة لصدق ايمانهم . وبلغ الخبر الى مسامع يوحنـا فاوشك ان يتفتّت فؤادهُ واخذت الكآبة منهُ كل مأخذ . فدخل مخدعهُ وجثـا على الحضيض باكيًا على ما طرأ بيعة الله من الشدائد طالبًا من عزّتهِ تعالى ان يتحنَّن على كنيستهِ ويكشف عنها ما اصابها من البلاء والمِحنة . وبينما كان القديس مستغرقًا في صلاتهِ فاذا بصوتٍ باطنٍ يستنهض همّتـهُ ويدعوهُ الى مُناصبة اعداء الله . ولم يزل هذا الصوت يَعمَل في صدرهِ الى ان اخذ القديس على نفسهِ المدافعة عن قضايا الايمان وعقائد الدين والمحـاماة عن اخوانهِ الذين باتوا في السجون مكبَّلين بالسلاسل حبًّا بالله فكتب اليهم رسالةً افتتحها بقولهِ: ايها الاخوة الاجلاء المكرمون النبلاء اني لعـالم حقّ العلم بعدم كفايتي وان الاجدر بمثلي ان يسكت ويمتنع عن الدخول بالمجادلة والمدافعة عن غيرهِ مكتفيًا بالبكاء والنحيب نائحًا على خطـاياهُ معترفًا ومقرًّا بذنوبهِ وآثامهِ العديدة التي

اقترفها وخالف بها شريعتهُ تعالى الّا اني رأيت لجج النوائب تُلاطم الكنيسة وعواصف المحن تهبُّ عليها في سائر الأمصار فظننتُ اني لا استطيع الاغضاء على تلك الحال. ولست أُبالي ان يكون مثير هذا الاضطهاد ملكًا فانهُ لأَولى ان يُطاع الله من الملوك اذا ما آمر هؤلاء امرًا ما يخالف وصيتهُ تعالى. ومن ثمَّ قد اصبحتْ اعمال لاون اغراءً لي على مقاومتهِ بعزم متين ألا واني لعالم ان لشوكة العظماء اشدّ فعلًا على خداع ضعفاء القوم من الرعايا ولا سيما الجبناء والقليلي المعرفة بامور الدين والايمان. ومن المعلوم عند العامّة والواضح عند الخاصّة أن ملوك هذا الزمان وعظماءهُ ملتزمون كل الالتزام بالخضوع باديء بدءٍ وقبل كل امر لله عزَّ وجلَّ الذي آتاهم السلطان وسلّطهم على رقاب الناس فانهم خاضعون لسننه الالهية بما انهُ ملك الملوك وربّ السماء والارض واليهِ مرجع الامور ومصير العالم. ثم كم نرى من الرعايا الذين لبسوا خوذة الشجاعة ودرع البسالة وناصبوا وقاوموا أوامرَ جائرةً واحكامًا ظالمةً حكمت بها عليهم ملوك الارض بعد ان لعبت برأسهم سكرةَ السلطان والكبرياء.

ثم ان هذا الجندي الباسل بل الضرغام الضائر لبس عُدّتهُ ورمى بنفسهِ في حومة القتال والطعان دفاعًا عن دينهِ ناويًا ان لا يكلّ عن مطاردة البغاة او يكفُّوا عن ضلالهم. وعليهِ شرع يوحنا في ايضاح المبادي الدينية والقواعد المسيحية والعقائد الكاثوليكية والقضايا المستقيمة الارثوذكسية والتعاليم الجامعة الرسولية مثبتًا ايَّاها باجلى بيان واوضح برهان بحيث انهُ لم يدع لقائل مقالًا ولا لمتعنّت مجالًا وافاض في شرح طريقة المسيحيين في اكرامهم لصور القدّيسين مبينًا بابلغ عبارة انَّ لَبونًا عظيمًا بين السجود المختصّ بعزّتهِ تعالى واكرام تماثيل اولياء الله كما انهُ ليس في تعبّدهم هذا كما يزعم الملك لاون شي من عبادة الاصنام اذ لا ينتهي اكرام المسيحيين الى الصور من حيث هي صور لكنما هو موجّهٌ الى القديسين الممثّل شخصهم في هذه التصاوير

ثم بيّن بالبراهين النقلية ان الله تعالى الذي امرنا بان لا نصوّر صورًا ونسجد لها لم ينهنا عن اكرام القديسين الذين تمثلهم لنا تلك الايقونات حيث انهُ عزّ وجلّ اوصى بان تُنصب صُورٌ في هيكل اورشليم وعلى تابوت العهد. ونتيجة الكلام ان الملك بمضادّتهِ واضطهادهِ الذين يكرّمون الصور الممثلة اشخاص اولياء الله سبحانهُ يضادُ الله نفسهُ ويُقاومهُ صريحًا والعياذ بالله من سوء المنقلب

ومماً ذكرهُ في تلك المؤلفات الجليلة قوله: «ان هذه البدعة نشأت عن خبث الشيطان اخزاهُ الله فانه كما حرَّك الناس قديمًا الى ان عملوا تماثيل لأقبح الحيوانات لكي يسجدوا لها هو نفسه يحرّك اليوم اناسًا جهلاء منافقين الى ان يستأصلوا الذين يكرّمون صوَر اولياء الله فها انَّ لاون المنافق ينصب صوَره ويأمر الشعب باكرامها ويعذّب من يحتقرها فكيف اذًا ينهى المؤمنين عن وضع ايقونات القديسين واكرامها». ثم ختم مقالته بقوله: «أيْ أُمم الارض اصيخوا اليَّ سمعًا واسمعوا انتم ايها المسيحيون وعُوا ما انا قائلٌ. ان اتاكم احد وعلّمكم تعليمًا مخالفًا لتعليم الكنيسة التي تعلّمتهُ من الرسل الاطهار والآباء الافاضل الابرار والمجامع المقدّسة وحافظت عليهِ الى يومنا هذه لتغذي بهِ نفوسنا فاياكم ان تسمعوا لهُ واياكم ان تقبلوا كلامهُ بل سدُّوا آذانكم عن استماعهِ ولا تغوينَّكم الحية الجهنمية كما اغوت أمّنا حواء بزخرف الكلام. فانكم ان اصغيتم لكلام آل البدع ادت بكم تعاليمهم الى الهلاك. وان جاءكم ملك او سلطان وعلّمكم غير ما تعلّمكم الكنيسة فلا تعيروهُ سمعًا واعرضوا عنهُ ودعوهُ يخبط في ضلالهِ».

ثم وجّه خطابهُ الى الملك الملحد الجديد وقال لهُ ان سياسة المملكة منوطة بالملوك. واما ادارة الكنيسة فمنوطة برعاتها ومعلّميها. ومن ثم فتعدّيهِ عليها لاختلاس سلطانها وسَنّهُ لها سُننًا باطلة هو اثم عظيم. فنصحهُ وحثّهُ على توقيرها واكرامها واحترام رعاتها ورؤسائها مثبتًا ذلك بما يأتي: «ان شاول مزّق يومًا من

الايام ثوب صموئل النبيّ وأمّا الباري عزّ وجلّ فلم يتركهُ دون عِقاب بل رذلهُ ونزع الملك عنهُ وقلّدهُ أحلم رجال عصرهِ وألطفهم واكثرهم انساً ووداعةً وتواضعاً وهو داود بن يسّى . وايزابل قامت على ايليّا النبيّ وقاومتهُ واضطهدتهُ فقُتِلت وافترستها الكلاب . وهيرودس امات القديس يوحنا المعمدان فاكلتهُ الديدان هو حيّ ومات شرّ ميتة . فويحك كيف تجاسرت واهنت القديس جرمانس المجل بطريرك القسطنطينية واوسعتهُ بصاقاً وشتماً وضرباً واهانةً واحتقاراً وطردتهُ من كرسيهِ الاسقفي لتقيم عليهِ دخيلاً ثم نفيتَ الراعى الصالح وطردتهُ مع كثير من الاساقفة القديسين المكرمين أمّا انك اقترفت اثم شاول وايزابل وهيرودس وتجاوزت حدّهم جسارةً وفظاعةً »

« فاعلم ايها الملك اننا مطيعون لك في الامور الدنيوية فقط وندفع لك الخراج والضرائب وأمّا فيما يخصّ امور الدين والايمان فلا نطيع الّا الرعاة الشرعيين واساقفتنا المبجّلين وما كنا لنرضى بتعليم جديد . حاشى لنا ان نمتثل لأمر من يحاول ابطال عوائد ابائنا المقدّسة . واكرر عليك قولي السابق واقول ان السيد المسيح لم يخول سياسة الكنيسة وادارتها لملوك الارض ولم يقل لهم حلّوا واربطوا بل قال للرسل وخلفائهم من رعاة الكنيسة واساقفتها ومعلّميها : ارعوا خرافي ونعاجي وما ربطتموهُ يكن مربوطاً وما حللتموهُ يكن محلولاً . واذا لا سمح الله تشبّث ملوك الارض بآرائهم واصرّوا على ضلالهم فنقول لهم ما قال الرسول « فليكونوا محرومين » . انتهى كلام القديس

فارسل هذا الرجل الخطير ومصباح عصره المنير ثلاث رسائل متتابعة الى مؤمني قسطنطينية مشبعة بالادلّة في بيان التعليم الصحيح بعبارةٍ تقطر حلاوةً وتسيل رقّةً وتضرم قلوب المؤمنين غيظاً مقدّساً على الملحد الجديد . وكثر نسخها لتُنشر في جميع انحاء المشرق وترجمت الى اللاتينيــة لتعمّ بلاد الغرب ايضاً وتشمل منافعها القاصي والداني

فعندئذٍ رأى لاون الايصوري ضدًا كريمًا وخصمًا عظيمًا انتصب قائمًا ليناضلهُ ويقاومهُ بكل بسالة اذ لم يكن ينتظر ويتوقع منهُ ذلك ولم يخطر لهُ ببالٍ قط. وكانت اقوال يوحنا اشبه بسهام نفذت الى صميم فؤادهِ فاوغرت صدرهُ عليهِ لانهُ حامى عن الشعب المسيحي وابطل المقالة المقاومة لاكرام الصوَر. فمن ثم اخذ يجتهد ان يفرغ كنانة غضبهِ على مَن طعنهُ باسنة براهينهِ وصار كانهُ ثور جموح هائج اصابهُ سهمٌ في جنبهِ وهو يجول في الميدان لينطح بقرنه من تجاسر على طعنهِ

الفصل الخامس

في الاضطهاد والظفر

ان لاون الايصوريّ المبتدع المحتال لم يدخل مع خصمهِ مداخل المجادل على امورٍ لاهوتية لانهُ فهم ان الدائرة تدور عليهِ والعاقبة لخصمهِ وذلك ثقةً بانهُ ليس من اكفائهِ. غير انهُ كان متكلًا على سلاح اشدّ تأثيرًا فعدل الى وسيلةٍ ظنّ انها تكون القاضية على خصمهِ وتضمن لهُ الظفر. وهي انهُ اختلق على القديس ما لم يفعلهُ رجاء ان يسعى في هلاكهِ ويعاقبهُ عن كشف اضاليلهِ باعين مؤمني القسطنطينية وبقية اقاليم المملكة البزنطية. فسوّل لهُ الشيطان ان يلتجئ الى طريقة المكر والخداع فاخذ يتطلّب نسخةً من مقالات يوحنا بخطّ يدهِ. فلمّا حصل عليها استدعى الى بلاطهِ اجود كتّابهِ خطًّا وابرعهم في التقليد فدفع اليهِ كتاب الدمشقي وقال لهُ: عليك ان تحذو حذو هذه الكتابة بحيث يقضي كلُّ مطّلعٍ عليهما بانهما قد رُقمتا بقلم واحد ويدٍ واحدة. ففعل واجاد في التقليد. وعندها انشأ لاون كتابًا باسم القديس يوحنا واختلَق فيهِ عليهِ ما شاء حقدهُ. وسلمهُ لذلك الكاتب لينسخهُ فنسخهُ كأنما سُطّر بيد القديس يوحنا وزير الخليفة بدمشق الفيحاء. وهاك نصّهُ:

الرسالة المزوَّرة

من يوحنا صاحب ديوان هشَّام بن عبد الملك

الى لاون ملك القسطنطينية

« اعلم ايها الملك سيّدي المعظَّم انَّ حبل الايمان يربطني بجلالتكم و يقيّدني بمحبة ذاتكم بعروة وثقى لا انفصـام لها ومن ثم أُفيدكم ان مدينتنا دمشق خالية الآن من الحامية فان الحروب قد افنت جيش العرب فخارت قواهم واضحت الحامية الباقية قليلةً حتى انها لا تني بحقّ المدافعة . فانشدكم باسم الله الحيّ ان تشفقوا على مسيحيي دمشق التعساء وترحموهم فبدارِ بدارِ الى بعث فرقة من جنودكم الى دمشق فانها تستولي عليها وتفتحها وتجعلها تحت رايتكم دون ان يقتل احد من جيشكم . واماَّ انا فاعدكم بكل ما تصل اليهِ مكنتي من المضافرة والمعاونة للسَّرِيَّة التي تبعثونهـا على دمشق وكل شيء ها هنا انما هو خاضع لأمري والسلام »

ثم بعـد نسخ هذه الرسالة المصنوعة المزوَّرة كتب لاون بخطّ يدهِ رسالةً اخرى ودادية الى امير المؤمنين وسلطان المسلمين يكشف بها خيانة القديس يوحنا ويظهر خلوص مودّتهِ للخليفة ودولتهِ . وهي هذه :

كتاب لاون الايصوري

من لاون ملك القسطنطينية العظمى الى الخليفة هشام بن عبد الملك

« اعلم ايها السلطان المعظَّم والخليفة المكرَّم بان لا شيء عندي اعزّ من السِلم ولا شيء احبّ اليَّ من القيام بالعهود ولا شيء اكرم واقدس عندي من صِلات الوداد التي تربطني بعرى الوفاق مع حلفاء مملكتي . واني لموقن انهُ

تعالى جزاء لصدقي بقولي ومحافظتي على الوفاء بمواعيدي يجود عليَّ بفيض بركاتهِ ونعمهِ. وعليه اني لأدومَنَّ اميناً في موالاتك محافظاً على العهود التي بيننا مهما ورد اليَّ من الاخبار السرِّيَّة والاستنصارات المتواترة التي تأتيني برهةً بعد برهة من عند مسيحيٍ خائن غدّارٍ يتقلّب على بساط نعمتك ويتفيأ في ظلّ عظمتك ويرتع في قصرك كانهُ أحد اخوانك وأصدق اعوانك. وقد وقع اليَّ اليوم كتاب من كتبهِ المتواترة فهاءنذا مرسلهُ لك لتعرف منزلتهُ منك ومصافاتي لك»

ثم طوى الرسالتين ودفعهما لسفيرٍ من اعوانهِ ورسولٍ من نُصراء ضلالهِ وسيّرهُ الى دمشق على وجه السرعة. فقدم وَفْدُ لاون عاصمةَ الشام وسلّم الكتاب للخليفة. فنجحت الحيلة على وفق مرام ملك القسطنطينية. وذلك انَّ الخليفة بعد ان قرأ الرسالة واطّلع على مضمونها تلظَّى غضباً واستشاط غيظاً واستدعى يوحنا في الحال واراهُ تلك الرسالة المفتعلة فلما قرأها يوحنا قال غيرَ وجلٍ ولا خائف: ايها الملك الاكرم ان هذه الكتابة هي نظير خطّي الَّا ان الرسالة ليست لي ولا جرم انها حيلةٌ مخترعة لهلاكي. واما الخليفة فلشدَّة سخطهِ لم يقبل من يوحنا عذرًا بل اخذ يبكّتهُ على فعلهِ ويذكره ما اصطنع اليه من الجميل وكيف اصطفاه بين اهل ملّتهِ ليكون عندهُ باعزّ مقام وارفع منزلة في وقت ما كان هو يدسّ لهُ الدسائس. فسكت يوحنا عن الجواب مسلماً امرهُ ليد الربّ طالباً منهُ ان يكشف هذه البلوى ويزيل التُهم عن نفسهِ. فحكم الخليفة بان يُعرى عن شارات مرتبتهِ وتُستصفى اموالهُ ومن ساعتهِ دعا بسيّاف وامرهُ أنِ اقطَع لهُ يدهُ اليمنى. وذلك لظنّهِ انها هي التي خطّت تلك الرسالة المزوَّرة مع انها لم تُسطّر شيئاً الى ذلك الوقت الَّا المدافعة عن حقوق دينهِ وصوالح سيّدهِ الخليفة. ثم عُلّقت تلك اليد في الشوارع وطيف بها في الازقَّة والاسواق لتكون مشهداً لكل ناظر. ولمَّا أُنجز امرُ الملك رجع يوحنا عِند المساء الى داره فرحاً بانهُ حُسب مستاهلاً ان يحتمل العذاب لاجل مدافعتهِ عن ايمانهِ. اذ تأكد ان الاسد القسطنطيني

الذي لم يقدر ان يمزّقهُ بمخاليبهِ تردَّى بجلد الثعلب ليصطادهُ بالمكر والخباثة

ثم دخل مخدعهُ وجثا امام ايقونةٍ لوالدة الله كان نصبهـا في غرفته الخاصة ليقدّم لها صباح مساء مُفترَض الاكرام. فاخذ يستحرُّ في الصلاة ويبتهـل مراحم تلك التي لم تخيّب رجاء آمل ولم تردّ دعاء متوسل لتعينه في بلواه وتمزّق على اعين آل دمشق نقاب المكر والخداع وتظهر برارة المسيحيـين اللائذين بحمى بني أُميَّة كالشمس في رابعة النهار. فللوقت سنح لهُ خاطرٌ حملهُ ان يرسل بعض خدَمهِ ليطلب من الخليفة. ان تُردَّ لهُ يدهُ المقطوعة ليدفنهـا. فاجابهُ الخليفة الى طلبته وكانت نار غضبه قد خمدَت على صاحب ديوانه

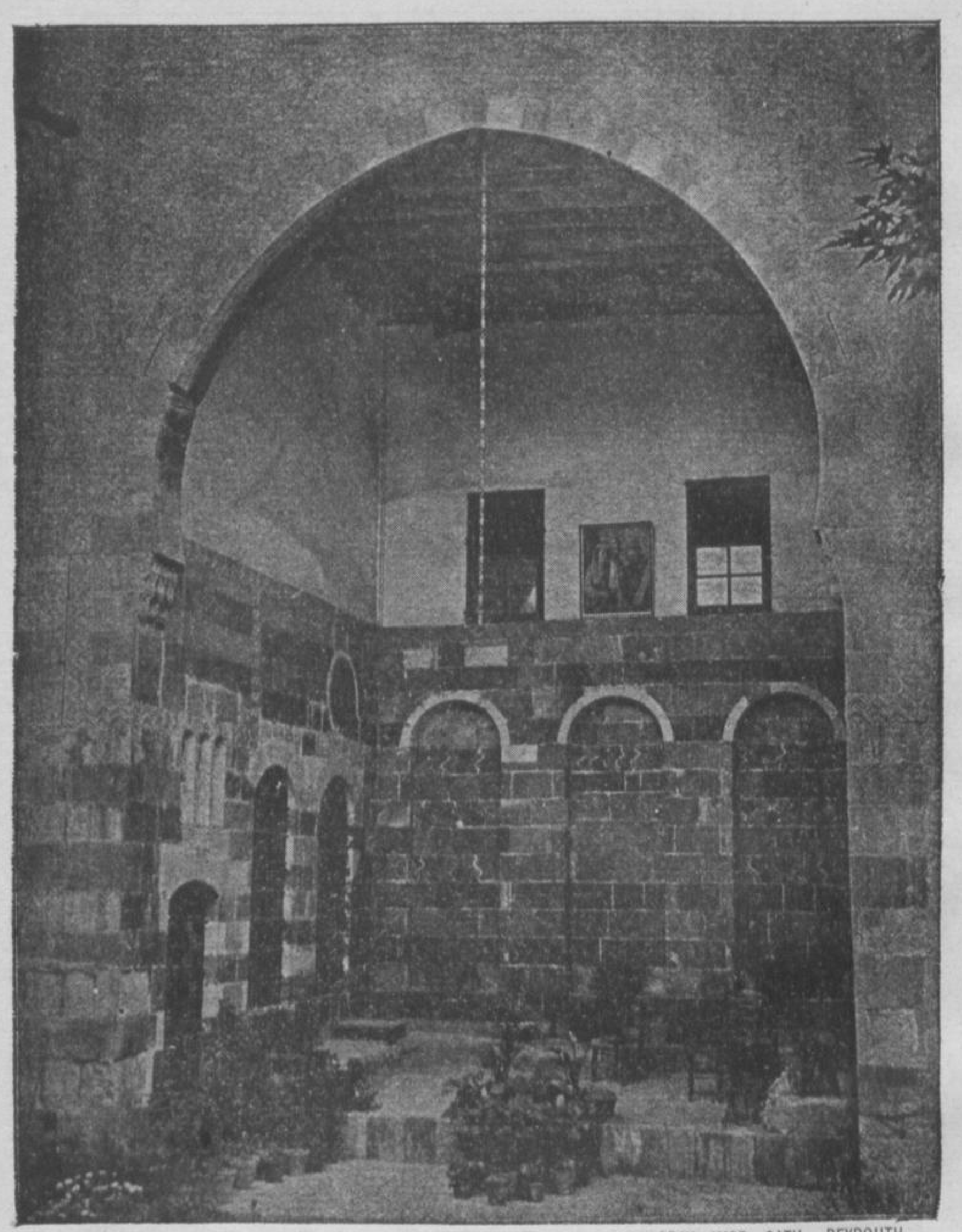
فلمَّا استردَّ يوحنا يدهُ عاد الى حجرتهِ وجثـا على ركُبتَيه امام صورة البتول ويدهُ بقربهِ وصلّى صلاة خاشع ذي ايمان وطيد واتـكال وثيق بشفاعة السيدة العذراء الجليلة فقال: ايتها البتول الكلية الطهر والنقاوة انتِ ملكة السماء وملجأ المؤمنين المجاهدين في سبيل الايمان انكِ لعالمة حقّ العلم بان السياف لم يقطع يدي هذه الَّا لكونها دافعت عن اكرام صوركِ المقدّسة وصور ابنكِ الالهي مثبتاً تلك الحقيقة بالحجج التي الهمتِني انتِ بها فألتمس من مراحمكِ الآن ان تظهري قدرتكِ وتقهري اعداءكِ وذلك بان تعيدي لي يميني المقطوعة فيستدل الجميع بهذه المعجزة البـاهرة براءة ساحتي مما قرَّفوني بهِ ونسبوه اليَّ ظلماً. فاذا تنازلتِ ولبّيتِ الى دعائي فاني اعدكِ ان هذه اليد مذ اليوم لا تعود تسطر شيئاً سوى ما يؤول لشرفكِ ولخدمة ابنكِ فتناضل حتى الموت عن عقائد الايمان وتشيد بمحامدكِ وبعظائم ابنـكِ ربي والهي. ثم اطال صلاتهُ حتى استولى عليه السُبات فنام تحت انظار سيدة الانام. فما لبث طويلاً حتى رأى تجاه ابصاره السيدة البتول على شكل ملكةٍ جليلة القدر بهية المنظر يلوح على محياها سيماء اللطف والحنوّ. فلما رآها يوحنا زال كربهُ وأُفعم بالسرور قلبهُ. وهمَّ بان يجثو امامها فبسطت اليه ذراعيها وقالت: ثق يا بنيَّ انك لقد جاهدت جهاد الابطال في سبيل الحقّ وستأتي

ساعة تنال جزاء العبد الامين عمّا صنعت . والآن ها اني اعيد لك يدك المقطوعة ليعلم الجميع برارتك ويخذل بذلك اعداؤك الذين هم اعدائي . قالت هذا ثم اخذت يده المقطوعة وقرّبتها من ساعدهِ فرجعت يده على ما كانت في عهد السلامة ثم توارت البتول عن نظرهِ

فقام يوحنا منذعرًا وهو يظنّ ان ما جرى لهُ ليس هو الّا اضغاثُ احلامٍ فنظر الى يده فاذا بها صحيحة سالمة لم يلحقهُ منها ادنى وجع . وكانت السيدة البتول لذكرها السلام تركت على عينهِ في موضع القطع اثرًا كسِلك احمر ليطّلع كلّ ناظر على حقيقة الواقع وصحة المعجزة . فطفق القديس يسبح الله ويثني على والدتهِ مقدّمًا لها الشكر الجميل ثم احيا ليلتهُ تلك في العبادة والصلاة

واعلم ان الحجرة التي حدثت فيها هذه المعجزة الباهرة لا تزال الى يومنا هذا في دمشق قد ادخلها اليسوعيون في كنيستهم . وقد اجمع نصارى الشام بتقليد متواتر على ان موقع دار منصور ابي القديس يوحنا كان هنالك وقد بقي منها بعض آثار من جدرانها مع بعض نقوش يُستدلّ منها على قِدَم عهد هذه الدار . ابقى اللهُ ذلك على ما حدث من الخراب والتقلّبات في عاصمة الشام لتعزية المؤمنين وتنشيطهم على اكرام وليّه . وفي الحجرة المذكورة قد أُقيم هيكل على اسم القديس تعلوهُ صورة بهية تمثّل يوحنا في هيئة شاب جميل المنظر ذي ثياب فاخرة وهو جاثٍ يُصلّي بورع وخشوع ثم ترى فوق سحابة شخص البتول عليها السلام جالسة على كرسيّ مجدها وجلالها وهي تبسط ذراعيها الى عبدها الامين وتجبر اليد المكسورة . وقد نُقش الحادث نقشًا بديعًا يمثّلهُ للعيان كما وقع بالفعل وذلك بقلم احد مشاهير المصوّرين في فرنسا اخذ رسم صورتهِ عن نقش قديم

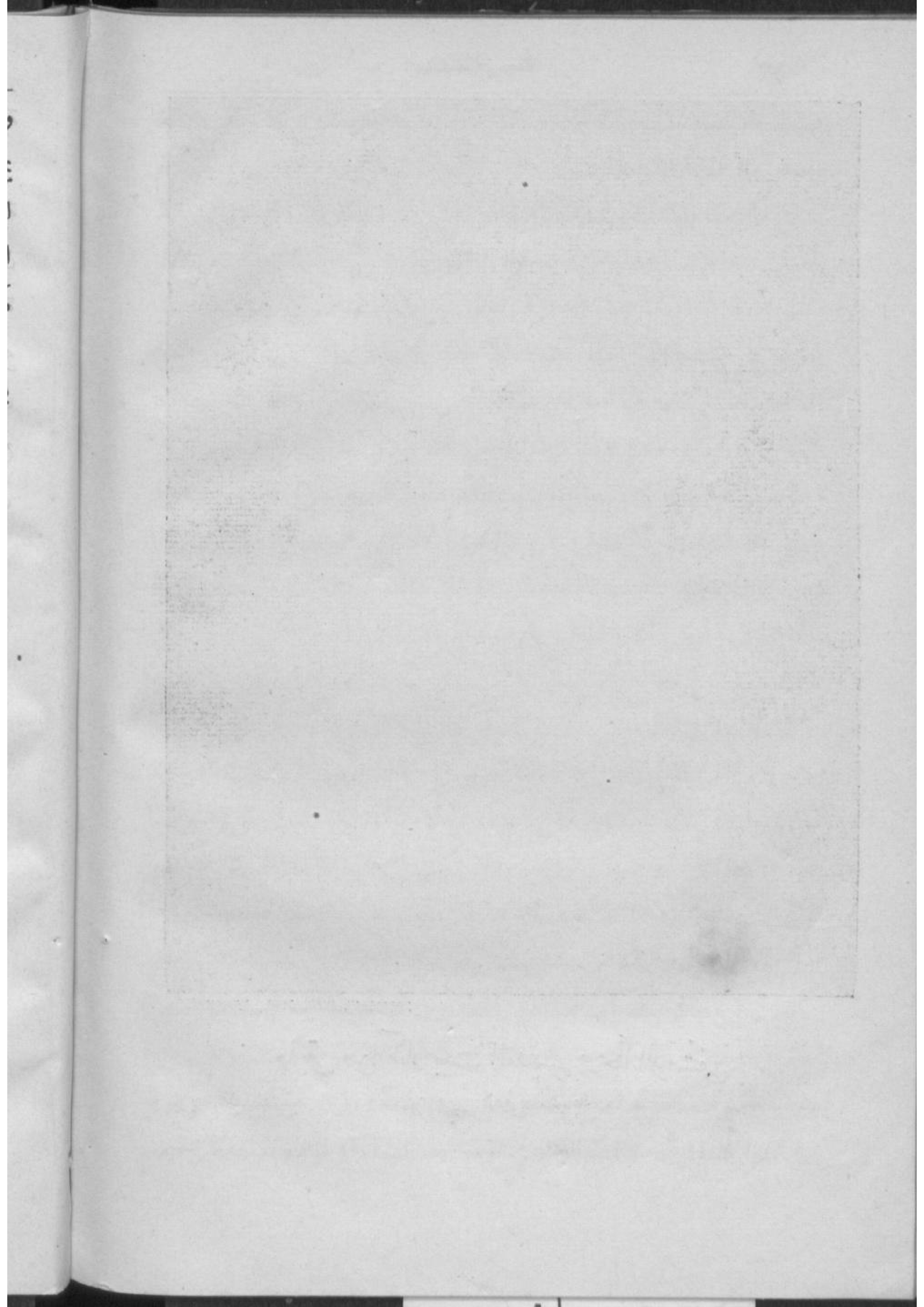
هذا ولمّا اصبح الصباح دخل على يوحنا خدَمُهُ واهله ليعزُّوهُ عما جرى لهُ في اليوم السابق من المحنة فاذا به يمدح مكارم العذراء مريم بصوت عالٍ وعلى



PHOTOGRAV. IMPR. CATH., BEYROUTH.

ما بقي من آثار بيت القديس يوحنَّا الدِمَشقِي

(راجع الصفحة ٣٠)



وجهه سِمة الفرح والسرور . فتعجبوا من امره فاراهم القديس يده سالمـة كأن لم يمسّها سيف الجلاد . فاخذتهم الحيرة واستولى عليهم الاندهال ولمّا قصّ عليهم القديس ما جرى لهُ اخذت الدموع تتهاطل من اعينهم فرحاً واجتمعوا به ليمجدوا الله ويثنوا على تلك التي خذلت قوّات الجحيم واعداء الكنيسة واستجابت دعاء مَن التجأ اليها في حاجته وبلائهِ

وما لبث ان شاع الخبر في سائر انحاء دمشق ونمى الى الخليفة فلم يصدق بصحتهِ حتى استدعى الجلّاد وتحقق انهُ اجرى اوامره بالتمام ثم قال لبعض عماله: عليَّ بيوحنا . فحضر ومدَّ يدهُ امام مولاهُ فجسَّها فاذ هي كما كانت من قبل صحيحة الّا ان على موضع البتر دائرةً شبه سِوار من عقيق دلالةً على مكان القطع . فعندها قال الخليفـة ليوحنا وهو منذهل كل الاندهال : بالله عليك قل لي من أبراك فقال: ربي العادل . ففطن الخليفة عندئذٍ للمكيدة التي دبّرها اعداء يوحنا لهلاك رئيس كتابهِ بشرّ وسيلة . فأنشأ من ثم يلاطفهُ ويعتذر اليهِ ويهنئهُ ويحمد معهُ مَن بيدهِ ارواح الانام ثم طلب منهُ ان يقصّ عليهِ تفاصيل خبرهِ . فقال: مولاي بين انا راقد في ليلة امس اذ رأيت في الحلم سيّدتنا البتول عليها اشرف السلام تلتفت اليَّ بوجه بشّاش ازال منظرها ما كان بي من الحزن فرعيتها سمعي وبصري فسمعتها تقول: بُنيَّ يوحنا داوم على المدافعة عن الايمان ومناصبة اهل البِدَع والبهتان . ثم امرتني بان اسعى في ملازمة التعبد لها والانقطاع لخدمة ابنها . وما اتمت كلامها حتى جبرت يدي المقطوعة بساعدها فعادت كما تراها الآن . غير انها تركت هذا الاثر ليقرّ الناس بصدق الواقع وليخزى اولئك الذين كادوا عليَّ هذه المكيدة

فلما سمع الخليفة كلام يوحنا وعاين من امر يده ما عاين اذعن للحقّ ووقف على سلامة طويّة عاملهِ واطّلع على خبث ملك القسطنطينية ثم قام الى يوحنـا واعتنقه واستغفر منه وقال له: سلني ما تشاء فاجيبك اليه . وأقسم على ان لا يردّ

طلبته وانهُ لمستعدّ ان يزيدهُ جاهًا وحظوة فيصبح عندهُ بعد ان كاد يذهب ضحية المكر اعلى مقامًا واشدّ نفوذًا

امَّا يوحنا فلم يكن ليبهرهُ شيء من هذه المراتب السنية والمواعيد الملوكية بعد ان رأى من صروف الدهر ما رأى . فخرّ على اقدام الخليفة وطلب منه ان يأذن لهُ بتلبية دعوة البتول الطاهرة والزهد في الدنيا ليصرف النظر في عبادة الحقّ سبحانه ليس الّا . فساء الخليفة هذا الطلب وحاول على أن يثنيهُ عن عزمهِ الّا ان يوحنا لم يزل يكرر طلبته والخليفة مصرّ على ان يبقيهُ في خدمته الى ان اجابهُ الى ما سأل . فشكر يوحنا مولاهُ على ألطافه وقرأ لهُ كلام الوداع ثم خرج مسرعًا الى داره وباع ما كان لهُ من طارف وتليد ووزّع ثمنهُ للفقراء ليخرج من الدنيا آمالهُ ويبتّ كل حبلٍ يصلهُ بها الى الابد وحرَّر ما كان لهُ من العبيد . وخرج من دمشق سائرًا على وجهه لا يملك الّا الثوب الذي كان لابسهُ

الفصل السادس

في الدير

وكان في ذلك الوقت قد انتشر في كل انحاء المشرق ذكر دير القديس سابا الجليل في بلاد فلسطين وفاح عبير قداسة رهبانه فكان كلٌّ من تاق ان ينفرد الى خدمة الله يتمنّي لو أُتيح لهُ ان يعيش في ظلّه تحت ادارة سُيَّاحهِ المشهورين . ففكَّر يوحنا ان يسير الى هنالك ليطلب الانتظام في سلك رهبانهِ . وما كان يزيدهُ رغبة في هذا الدير انَّ قزما اخاهُ بالرضاع كان سبقه اليه فودّ يوحنا لو اجتمع به . فدخل بعد بضعة ايام مدينة القدس وتبرّك بزيارة الاماكن المقدّسة حيث تمت اسرار الخلاص وخرج الى دير القديس سابا وهو لا يبعد عن اورشليم سوى ثلاث ساعات . واما موقع الدير فانما هو في منتصف الطريق بين بحر لوط والقدس الشريف على منهبط وادي قدرون في محلٍ لا انس

فيه بين صخور هائلة لا اثر فيها لنباتٍ تعلو بنايات الدير الضخمة بين حجرَيْ ذلك الوادي

فدخل يوحنا الدير وهو اشبه بالأيل الظمآن الطالب لموارد المياه فجثا على اقدام الرئيس بكل تواضع والتمس منهُ ان يقبلهُ كنعجة ضالَّة تطلب ان تأوي الى حظيرة الرهبنة وتنجو من ذئاب العالم الكاسرة . فسرّ الرئيس ايّ سرور اذ وقف على اسم يوحنا وكان صيتهُ قد بلغ الى مسامع الرهبان وكثيرًا ما كانوا طالعوا كتاباتهِ في اكرام الصوَر والتماثيل المقدّسة . وعليهِ اكرم وفادتهُ ونظمهُ في سلك المبتدئين . ولا حاجة لنذكر ما شملهُ من الفرح عند اجتماعهِ بهؤلاء الرهبان الصالحين لا سيما بصديقهِ قزما . ثم وكل الرئيس امر يوحنا الى من رآهُ بينهم اوفر حكمةً ودرايةً وخبرةً الّا ان ذلك المرشد اذ اطّلع على ما حازهُ تلميذهُ من كنوز الفضائل وسعة الادراك في الامور الروحية صغر في نفسهِ وأبى ان يتولى تدبيرَ رجل كان هو يراهُ اجدر بارشاد قدماء الرهبان منهُ بالأخذ عنهم . وكذا فعل جماعة من المعلّمين الروحيين في ذلك الدير فيما روى اصحاب ترجمة القديس . الى ان وجد الرئيس شيخًا جليل القدر اصيلًا في الفضل متصفًا بسذاجة عجيبة رَضِيَ بهذه المهنة اللطيفة واخذ على نفسهِ ان يخرّجهُ يوحنا في كل اصناف الفضائل ويدرّبهُ في كل سبل القداسة . ولعلمهِ بان قلبًا ذا همةٍ عالية مثل الذي اؤتمن عليه لا يقنع بالدون جعل يذهب بتلميذهِ الى اسمى الفضائل ويبعثهُ على مضاهاة اقدم الرهبان سنًّا وارسخهم في ممارسة اعمال البرّ قدمًا

وكان من جملة ما فرضهُ عليهِ الشيخ ان يعصي هواه ولا يفتخر بعلمهِ ولا يثق بنفسهِ وينزّه قلبهُ ممّا يعتبرهُ البشر من زخارف الدنيا فيحذر لا سيما من طلب مجدها الباطل ولذلك أمرَهُ ان يلزم الخلوة ويحافظ على السكوت ويتفرّغ للصلاة وشغل الايدي فلا يدع لابليس ندحةً ليصطادهُ في اشراكهِ خزاهُ الله . فامتثل يوحنا لوصايا الشيخ امتثال الطفل الصغير لاوامر والدهِ وبالغ في مراعاتها اجمالًا وافرادًا بل زاد عليها فرائض جديدة نافلة افترضها على نفسه منها ان لا

يعارض احدًا في ايّ امرٍ كان ويطيع لروسائه طاعةً عمياء في كل ما يأمرونه من الصلاح قاضيًا بعقله ان اوامرهم هي عين الصواب . فداوم مدةً على ممارسة هذه الفضائل والشيخ لا يزال يكلّفهُ اشقّ الاعمال وادناها ويونّبهُ على كل زلّة تصدر منهُ ولو خفيفة حتى بلغ بعد زمن وجيز الى اوج الفضيلة وذروة الكمال حيث لم يبلغ قدماء السيّاح الّا بعد السنين المستطيلة

ومن الدلائل التي شهدت لفضله ما ذكرهُ بعض الثقات من موءرخيه قال : ولمّا رأى الشيخ من تقدُّم تلميذه في الفضيلة ما رأى استدعاهُ يومًا ليختبرهُ فقال لهُ : يا ولدي يوحنا اني قد سمعتُ بان السِلال التي نحيكها تباع بمدينة دمشق بثمن اوفر واغلى من ثمنها بارض فلسطين وانت يا ولدي العزيز عارف بمزيد احتياج الدير الى الضروريات وزيادة بعض دُنينيرات . فخذ اذًا ما تقدر من هذه السلال واذهب بِعها بدمشق بالثمن الذي اعينهُ لك . ثم سمّى لهُ ثمنًا ارفع من المبلغ المتعارف ضعفين . فقام يوحنا الذي كان رئيس الكتّاب بدمشق وحمل على ظهرهِ حملًا من القفاف والزنابيل غير متذمّر ولا معترض وانطلق بها الى دمشق وجعل يطوف شوارعها وعليهِ ملابس خلقة رثّة بالية يرقّ لهُ أقسى الناس قلبًا وكان يعرض في الاسواق تلك السلال والقفاف للمبيع . وكان اذا اتاهُ احدٌ للشراء وسألهُ عن ثمنها طلب منهُ الثمن الذي سمّاهُ الرئيس . فلذا كان يسخر منه كل مارٍ وسائمٍ ويُوسعهُ شتمًا واحتقارًا واهانةً حتى انهُ صار أُلعوبةً وسخرية للشبّان والغلمان . واما يوحنا الشاب الفاضل فلم يرفع بصرهُ عن الارض ولم يلتفت الى احدٍ كانّهُ غير مبالٍ بكل هذه السخرية بل كان يقبلها بمزيد الفرح والسرور محبّةً بالسيّد المسيح . وبقي على حالهِ حتى صادفه احدُ خدّامهِ القدماء فاحدق نظرهُ بهِ فعرفهُ واشترى منهُ تجارتهُ وبضاعتهُ ونقده ثمنها الذي طلبهُ دون ان يُنقص منهُ فلسًا واحدًا . واخذ القفاف وتوارى عن

العيان . واما يوحنا فرجع الى ديره معتداً نفسهُ من السعداء المغبوطين لكونهِ أُهين واحتقر بمدينة دمشق مسقط رأسهِ

وكان الشيخ امر يوحنا ان يُعرض عن دراسة العلوم وفن الكتابة . فحدث ان راهباً من رهبان دير القديس سابا توفي والدهُ فجاء في ذات يوم وطلب الى يوحنا ان ينظم لهُ ابياتاً في رثاء المتوفى وبالغ في الالحاح عليهِ حتى خيّل ليوحنا ان لا مفرّ لهُ من اجابة هذه الطلبة محبةً باخيهِ الراهب فنظم ما ترجمتهُ :

كلُّ ما في الارض زائلْ   كلّهُ فانٍ وباطلْ
وحسامُ الموت ماضٍ   في الأَواخر كالأوائلْ
ليس يُبقي الدهرُ حياً   ملكاً يقوى كخاملْ
لا غنى يتبع ميتاً   لا ولا جاهٌ يزاملْ
غير برٍّ وفعالٍ   يصطنعهُ المرء فاضلْ
آهِ مَن يُنقذُ نفسي   من يد الدهرِ المخاتلْ
يا يسوع الحيّ ربّي   أقبلْ دعاءي المتواصلْ
وامنح الموتى سلاماً   في نعيم غير زائلْ

فبينما كان الراهبان مشغولين في قلايةٍ بانشاد هذه الابيات على لحن شجي من الالحان سمع نغمتهما مرشد يوحنا الشديد التدقيق في حفظ قوانين الرهبانية فجاء اليهما بوجهٍ عبوس ووقف بالباب ثم وجّه خطابهُ الى يوحنا وقال لهُ : اهكذا تفي بوعدك يا بني . اين ما تعهّدتَ بهِ ان لا تتجاوز اوامري واين صدق موعدك . ما هذا العمل وما الذي طوّح بك الى معاودة النظم والانشاد باصوات رخيمة والحانٍ موسيقية . فاحمرّ وجه يوحنا خجلاً وظنّ عندئذٍ ان الواجب عليهِ ان يبيّن لمرشدهِ داعية ذلك النظم . غير ان الشيخ لم يقبل لهُ عذراً بل طردهُ من امامهِ

دون ان يُصغي الى كلامهِ وحججهِ . فمضى يوحنا حزيناً كئيباً واخذ يبكي وينوح نادباً على مخالفتهِ لرئيسهِ وعدم اطاعتهِ لاوامرهِ

الّا ان كثيرين من شيوخ الرهبان القدماء حاولوا ان يشفعوا فيهِ عند مرشدهِ ليصفح عن زلّتهِ فخاب مسعاهم وذهب كل جهدهم هدرًا فان المرشد اصرّ على عدم قبولهِ وردّ كلَّ مَن شفع فيهِ . ولكنهُ بعد استنفاد وسائل استرضائهِ عفا عنهُ بشرط غريب اشترطهُ عليهِ وهو ان يذهب هذا المبتدئ ويجمع بيدهِ من حول الدير كل اقذارهِ ويرحض كلّ اوساخهِ فقام يوحنا من ساعتهِ واتمّ امر مرشدهِ بكل نشاط وبسرور باطن كان يلوح على وجههِ وفي جميع شخصهِ

فلمَّا عاين ابوهُ الروحيّ ما ابداهُ من التواضع في اتمام ذلك الفرض المذلّ دعاهُ وضمَّهُ الى صدرهِ وقبّلهُ معانقاً وهتف: لله درّك ايها الغلام الشجاع غلام الطاعة المقدّسة انك اليوم لقد ظهرتَ بطلًا صنديدًا وجنديًّا شهمًا في خدمة المسيح يسوع مخلّصنا . فتأثر يوحنا لكلام الشيخ وزادهُ مديحهُ خجلًا واتضاعًا . ثم خرَّ على اقدامهِ باكيًا واقرّ معترفًا بزلّتهِ طالبًا منهُ باشدّ الالحاح الصفح عنها . فانهضهُ الشيخ واخذ يعزّيهِ ويُحرّضهُ على ان لا يحيد شيئًا عن عزمهِ في طلب الكمال

فهذه لمعة من اخبار القديس ذكرها كتّاب ترجمتهِ ليبيّنوا لنا بايّ سرعةٍ وايّ نشاطٍ سار هذا المترهب الجديد في معارج الكمال . فانهُ اذ كان توّاقًا الى ان يبرز بين آل البرّ والصلاح لم يبالِ بما كان يلقاهُ من المشاقّ في نهج هذه الطريق الوعرة الى ان بلغ اوج القداسة فكانت سبيلهُ كما يقول الكتاب الكريم كمثل النور المتلألئ الذي يتدرَّج في انارتهِ الى قائم النهار او كنسر يحلّق في الجوّ فلا يحطّ من طيرانهِ حتى يدرك اعالي الرُّبى وقمم الجبال الشاهقة

هذا وان البارئ تعالى لم يدع تحت المكيال نورًا ساطعًا كهذا النور الباهر . ففي احدى الليالي تراءت السيدة البتول لمرشد يوحنا وامرتهُ بان يأذن لتلميذهِ

بالاكباب على الانشاء والتصنيف مدافعةً عن حقائق الايمان . فامتثل الشيخ امر السيدة واستدعى عنـد الصباح تلميذهُ وقصَّ عليهِ رؤياهُ ثم تقدَّم اليهِ بان يتاجر بما اعطاهُ الله من الوزنات لكبح مساعي الهراتقة وانارة الضالّين عن سُبُل الايمان . ثم قال لهُ في اثناء ما قال : طِبْ نفساً يا بنيَّ وثِق بمن أفعمَ بنعمهِ ومواهبهِ الصالحة قلبك فجعلهُ كجنَّةٍ نضرة الازهار يانعة الاثمار . فهيَّا أَخرِج من هذا الكنز الصالح عتقاً وجُدُداً ودعْ لسانك ينطق من فضل ما في جنانك وليجرِ قلمك بما يجول في ذهنك المتوقد ولبك الذكيّ لبنيان بيعة الله وخير النفوس

فمن ذلك اليوم تأججت تلك الجمرة التي اخفاها رماد التواضع وسطعت تلك الشمس المحجوبة تحت سحـابة الطاعة الاختياريَّة وتوسطت في رابعة سماء الكنيسة بحيث انتشرت اشعَّتها الى سائر انحاء المعمورة

الفصل السابع

يوحنا الدمشقي بصفة كاتب وشاعر

ان الكنيسة اليونانية تترنَّم في كتاب الميناون في اليوم الرابع من كانون الثاني باناشيد مطربة وترانيم مبهجة شعريَّة تطرأ يوحنـا الدمشقي وتبيّن ما كان لهذا البطل الصنديد من الايادي الطوال في خدمة العِلم فدونك صدًى من هذه التسابيح :

ماذا ندعوكِ ايها القديس الجليـل أيوحنّا المتكلّم باللاهوت ام داود المترنّم او كنّارةً ملهمةً من الله . فانَّ اقوالك احلى من شهـد العسل تسرّ القلوب وتطرب المسامع وتبهج محافل البيعـة . انك حقّاً ذاك المجرى الذهبيّ (χρυσοῤῥόας) الذي فاض في كنيسة الله فأغنى مَنْ ورد مناهلهُ الصافية انت الكوكب الساطع الضياء الذي استنار بصرك بأشعة الثالوث فدخلت مثل موسى

الكليم الى غمام الروح الالهيّ واقتبست الاسرار الغامضة . انت البوق الجهور الصوت الذي ايقظ الخطأة من سِنَتهم لا بل القيثارة اللذيذة المحرَّكة بنسائم الروح القدس والمشنّفة الآذان . يا يوحنا انك لمَّا التهبت غيرة نقضت جميع الاراتقة المحاربين لله ودحضت تعاليمهم الفاسدة نافياً بكتاباتك المتّصلة ما كتبوه من التجاديف والافتراء على الايقونات المباركة . ونقضت بالكتب التي ألفتها ضلال نسطور وهذيان ساويرس ومزاعم المعتقدين بفعل واحد ومشيئة واحدة . ان العدوّ الشرير كان قد زرع حسب مألوف عادتهِ في كنيسة المسيح زؤانًا على انهُ ما لبث ان رآك ساهرًا تستأصل زرعهُ الرديء ومنحت الكنيسة اعتقاد الرأي القويم لتعتقد باستقامة وتمجد الثالوث . ولمَّا اطَّرحت انت ملاذَّ العالم وتمسكتَ للمسيح حاملًا معهُ صليبك ها انك ممجدٌ معهُ حسب وعدهِ الى الابد ألَا جُدْ علينا من علوّ عرشك واشفع في خلاص نفوسنا

ولا يسعنا في هذا المقام ان نتكلّم بالتفصيل عن اعمال القديس يوحنا الدمشقي غير ان المديح الذي تقدّم اثباته لا يُجيز لنا ان نسكت عما تميّزت بهِ حياة القديس المذكر ودعوتهُ . فقد نشأ في برّية القديس سابا شاعرًا مجيدًا نابغًا فضاع عَرفُ شهرتهِ في أرجاء الكنيسة جمعاء ولم يزل يعطّرها بفائح طيبهِ . ويؤخذ من كلام الكردينال ماي انهُ قد بقيت من منظومات القديس يوحنا ثمانية الحان في مديح القديس باسيليوس وسبعة في مديح القديس يوحنا الذهبيّ الفم والقديس نيقولا والقديس جرجس وتسعة في مديح القديس بلاسيوس واربعة في تقريظ بطرس الرسول . ومما يعذُب ذكرهُ ويحلو إثباته أنَّ ما تسعّر في فؤاده من المحبة المضطرمة لمريم العذراء كان يدفعهُ الى الإكثار من تكرمتها حتى لم يعرف ان يحرّك قلمهُ دون ان يورد اسمها ويفيض في اجلالها والثناء عليها . وكيف لا تلتهب أحشاؤهُ بمحبتها وقد جادت عليهِ باجزل النعم واسبغت عليهِ افضل الالآء . ومن جملة اقواله في مديحها ما يلي :

« ان ذاك الذي لا جسم لهُ اتخذ جسماً من احشائكِ الطاهرة أَجَلْ هو الكلمة الحيّة التي كوَّنت الارواح وتفضلت بالوجود على كل جوهر مخلوق ذاك الذي هو كلمة الآب. فتعطَّفي اذًا يا امّ الحيـاة واميتي فينا اهواء الجسم التي هي موت النفس . فقدّمينا ايتها العذراء الجزيلة القداسة والشفيعة المشفّعة والوسيطة الكثيرة الرأفة الى ذاكِ الذي شاء ان يولد منكِ ونسألكِ بحقّ شفاعتكِ الوالدية ان تمحي وفرة خطايانا »

على ان هذا الشاعر الذي ضمّ التقى الى الاقتدار على التصرّف في ضروب المعاني لم يكن ليعرف — كما سبق القول — ان يجيل قلمهُ على الطرس دون ان يترنّم بمديح العذراء موزّعة النعم فكأنهُ كان يفعل ذلك بسائقة غريزية ولهذا كان ينهي كل اناشيده ببعض أبيات يناجي بها والدة الخلاص ويقول ان البشر لا يستوفون حقّ مديحها مهما أجادوا ويأسف على عدم امكانه من ان يقدم لها ترانيم احسن وقعاً وهو القـائل « ان لساني المرتبك وصوتي الضعيف يتوقفان عن الترنّم بالحان تكرمتكِ يا سلطانتي العظيمة لكنهُ يتغنى بمديحكِ لفيف الملائكة ذوو الالسنة النارية وتنشد الحان توقيركِ افواه سماوية ليست بذات اجسام »

وكل ما نظمهُ هذا القديس لمدح البتول يشفّ عمّا كان لهُ من عاطفة الثقة بها والاتكال على حمايتها القديرة ومن ذلك قوله « ان زوبعة الخطايا وامواج الطغيان وصخور الاسواء تدفعني الى هاوية اليأس فمدّي اليَّ يدكِ ايتها البتول مخافة ان تبتلعني وانا حيّ . ان الأسد الزائر يدور حولي ويهمّ بافتراسي فلا تتركيني أقع بين مخالبهِ ايتها البتول الطاهرة التي ولدت صاحب القدرة الالهية التي تحطم يده القوية انياب الاسود »

وقد نبغ القديس يوحنا الدمشقي في نظم الاناشيد والترانيم الروحية حتى قال

سويداس انهُ لم يقم في كنائس الشرق مَن يضاهيهِ في هذه الطريقـة ومن ثمّ لم يزل الروم الى يومنا هذا ينشدون في فروضهم الليتورجية الالحان التي ألفها

ولم يكن قديسنا يوحنا نابغًا في الشعرِ لا غير ولكن الخطب والمواعظ الباقية من آثاره عن تجلي السيد المسيح وولادة العذراء ووفاتها ومديح القديس باسيليوس تذكرنا بكتابات يوحنا الذهبي الفم وشدّة لهجته وحصافة عقلـه وتؤيد لنا ان معاصريه قد لقبوه بحق واصابة بنهر الذهب

غير ان الله تعالى كان قد اعدّ عبده — كما مرّ الكلام — لانفاذ مقاصد اسمى فهيأه من زمن طويل لان يزين الكنيسة بانوار معارفه اللاهوتيـة . ومع ان الشرق كان قد اخرج للديانة علماء فطاحل وجهابذة أماجد مثـل القديس باسيليوس ويوحنـا الذهبيّ الفم وغريغوريوس النزينزي الّا انهُ كان قد مرّ على النصرانية في عهدهِ ثمانية قرون لم يقم فيها احد يعطي لعلم اللاهوت هيئـة تعليمية تسهّل التعمق فيهِ والتبحر في مسائلهِ المختلفة . ولمّا كان الضلال المتزخرف بثياب العلم الكاذب قد فشا وتزايد في تلك الايام شاء الله تعالى ان ينهض المدافعون عن الديانة نهضة الابطال و يصطفوا للقتال و يستعملوا السلاح الكلاميّ المقدّس على موجب طريقة مرتَّبة . وكان القديس يوحنا الدمشقي اول الذين أُلهموا الى تهيئة مسلحةٍ يستعين بها المقاتلون في الاستقبال على تشتيت شمل المناوئين . فلبّى داعي الالهام ووفى حقّ العمل الذي ندبتهُ اليهِ العناية الالهيَّة ولهذا نرى المعلّم الملائكيّ وسائر اللاهوتيين بعده لا يزالون يسيرون على طريقتهِ الجدالية و يتخذون كلامه منجدًا وسلاحًا على تأييد الحقيقة المقدّسة

وقد ألّف في المعنى المتقدّم خبَره كتابًا جليلًا يُعد اعظم اعمالهِ وسمّاهُ « ينبوع العلم » وهو ينقسم الى ثلاثة اجزاء ويتضمن المنطق وفيهِ جرى المؤلف القديس على منهاج ارسطو في فلسفته فاوضح المبادئ وجلاها وشرح الحدود التي كان اباء الكنيسة اليونانيـة قد استعاروها عن المصنفين الوثنيين . ومن ثم كان

منطقهُ هذا جزيل الفائدة لفهم كتابات الآباء اليونانيين . ويليهِ مُطوَّل في تاريخ البدع كان قد ابتدأهُ القديس ابيفانيوس فأتمّهُ القديس يوحنا وأوصله الى القرن الثامن وزيف فيهِ مزاعم المبتدعين واقوالهم منتصرًا للايمان الذي كانوا قد حقروه . وتأتي بعد هذا التاريخ مقالته المشهورة في الايمان المستقيم (وهي مترجمة الى العربية لكنها لم تطبع وفي مكتبتنا الشرقية في بيروت نسخ خطية منها) وفيها تكلّم هذا الملفان كلام عالم وايّ عالم عن الله تعالى وطبيعته واعماله وعنايته والتجسد الالهيّ وقد قدم هذا الكتاب النفيس الذي أودعه طرفًا من التعاليم الى مطران مايوما في فلسطين وهو قزما الصغير الذي شارك القديس يوحنا مدة طويلة في اعماله وترك للخلفَ عدة كتاباتُ تقوية ومات على الكرسي الاسقفي الذي رفعته اليهِ فضائله

على انهُ يحسن بنا ان ننهي هذه اللمحة الموجزة التي اودعناها بالاختصار اعمال تلك اليد التي شفتها مريم ووقفتها لمجد ابنها بما قاله الانبا بيتو عن هذا الملفان العظيم :

« كان القديس يوحنا الدمشقي غزير الفهم ثاقب العقل أعرب عن مقدرة في المنطق وقوة في الاستدلال تقضيان بالعجب . امَّا كتاباتهُ فتدلُّ على حصافة ذهن وسداد رأي مقترَنيْن بعلم واسع وذكاء نادر في اثبات الحقائق بالبرهان وكان اول من بحث في المسائل اللاهوتية على الطريقة المدرسية بحيث يصحّ القول انهُ مبتكرها » (١)

(١) معجم تراجم القدسين للأب مين

الفصل الثامن

في وفاة القديس

ليس من أثر يعرب لنا عن حياة القديس يوحنا الدمشقي والعيشة التي صرفها بالانفراد والصلوات سوى ما خلّفه من المصنفات والتآليف ولا شكّ ان حياة تنقضي على هذه الصفة من التقوى وحب الله تعالى ينبغي ان تكون ملأى بالامثلة العديدة التي تصلح لفائدة القريبِ وبنيانه غير ان التاريخ قد سكت عنها سكوتاً كاملاً وغاية ما يذكره هو انه غادر بريّة القديس سابا مرّتين. وذلك ان قسطنطين كوبرونيم (الزبليّ الاسم) ابن لاون الايصوري الذي جلس على تخت الملك بعد ابيه عقد مجمعاً في القسطنطينية حضره ثمانية وثلاثون اسقفاً دفعتهم الوقاحة الى ان رذلوا اكرام الصوَر ورشقوا في الوقت نفسه يوحنا الدمشقي الذي كان معروفاً باسم منصور بسهام الحرم قائلين « ليكن محروماً منصور الذي تأويل اسمهِ مرذول (١). ليكن محروماً منصور عدوّ المسيح والمملكة ليكن محروماً منصور المزوّر والوثني. ليكن محروماً منصور الذي يعلم النفاق ويفسر الكتب بغير معانيها » الّا ان يوحنا جندي المسيح الشجاع ازدرى بهذه الحروم ولم يكتفِ هذه المرّة كما فعل في عهد لاون بان يعزّي برسائلهِ اخوته المضطهدين بل سار بنفسهِ الى القسطنطينية ليحرّك الشجاعة في المسيحيين ويحرضهم على استئناف المجاهدة وبعد ان اكمل هذا الواجب ووفى بفرضهِ عاد مسرعاً الى قلايته وعمله ولم تمضِ برهة يسيرة حتى استدعاهُ البطريرك الى اورشليم ليرقيه الى درجة

(١) يظهر ان هؤلاء الهراتقة يشيرون الى كلمة عبرانية ממזר ومعناها الدنس تأوّلوا اسم القديس على مقتضاها افتراءً وكذباً

الكهنوت وقد كان منذ بضعة سنين اسام صديق يوحنا قزما اسقفًا على مَيوما . غير ان القديس تمنَّع في باديء الأمر قائلًا انهُ ليس مستحقًا لهذا الشرف الوسيم . ولم يستطع اخيرًا الَّا ان يطيع اشارة البطريرك فقبل وضع اليد ورجع حالًا الى البرّيَّة وهنالك تدفقت منهُ بغزارة كنوز من العلم والشعر والتقوى كانت قد طفحت منها نفسه العظيمة

وقد اجمع المؤرخون على ان يوحنا عُمّر زمنًا مديدًا حتى وصل الى سنّ متقدّم من الشيخوخة ويؤخذ من الميناون اليوناني انهُ انتقل الى رحمة ربهِ في المائة والرابعة من عمره . والمعروف على التأكيد هو ان القديس كان حيًا في سنة ٧٥٤ وهي السنة التي عقد فيها كوبرونيموس (الزبليّ الاسم) ذلك المجمع الافترائي الذي تقدّم خبرهُ . ومعلوم من جهة اخرى انه قبض لرحمة الله تعالى قبل ايام المجمع الثاني النيقاوي سنة ٧٨٧ واقام لهُ الاباء المجتمعون أثرًا من الآثار التي لا يمكن ان تُنصب الَّا على المدافن وعليهِ فالانسب ان يُعيّن بين هذين التاريخين زمن انتقاله الى حياة الآخرة

وان قيل هل مات القديس يوحنا في دير القديس سابا أجبنا انهُ لا يعلم عن هذه المسألة شيء أكيد . ومع ذلك فقد ورد في سيرة اسطفانوس المنسوب الى دير القديس سابا وهي من تأليف لاونسيوس « ان يوحنا الدمشقي دفن مع اوفر الرهبان شهرةً بالتقى والفضيلة فقد ضُمت ذخائرهُ في ضريح واحدٍ مع ذخائر القديس يوحنا الاسقف » . وقال يوحنا فوكاس الذي كان في القرن الثاني عشر في معرض وصفه للاماكن المقدّسة « يوجد امام كنيسة القديس سابا رواق مبلّط بالحجارة وفي وسط الرواق أُقيم ضريح من الرخام للقديس سابا مرتفع قليلًا عن الارض وحول الضريح المذكور مدافن عديدة للرهبان الذين امتازوا في حياة العزلة والانفراد ومن جملتها قبران للقديسين قزما ويوحنا وهما شاعران قديمان »

ومما لا شبهة فيهِ هو ان ذخائر القديس يوحنا الدمشقي قد حُملت في زمن

غير معروف الى القسطنطينية وكان المسيحيون يكرّمونها ودليل ذلك ان عدة سنكسارات رومانية تقول « ان القسطنطينية تضمنت ذخائر القديس يوحنا الدمشقي الطيب الذكر الذي كان ملفانًا زاهدًا وقد اشتهر بسيرته كما اشتهر بالمعجزات التي جرت على يده » . وما عدا ذلك فان جيورجيوس باشيميريوس من اهل القرن الرابع عشر صرّح علنًا انهُ من عهد اندرونيكوس باليولوغوس كان جسم يوحنا الدمشقي محفوظًا في القسطنطينية

ولا يستنتج من هذه الشهادات المختلفة سوى ان جسد الملفان القديس الذي دفن اولًا في دير القديس سابا نُقل بعد ذلك الى القسطنطينية اما كلهُ واما بعضهُ اجابة لرغيبة السكان الذين سعوا في ذلك اجلالًا ليوحنا الذي كان قد بذل كل الجهد في حياته لعضدهم ومساعدتهم

ثم ان الشهادات التي تقدّم ايرادها تثبت ان المسيحيين قد بادروا سريعًا الى تكريم اسم القديس يوحنا . وفي تلك الايام كان الايمان متمكنًا من القلوب وحيًّا في النفوس فكان صوت الشعب وإجماعه هو الذي يرفع الى المذابح خدَمة الله الذين اخلصوا لهُ الاعمال وكان نائب السيد المسيح يثبّت ما قد لهج بهِ الرأي العام . واي قديس يا ترى كان تثبيتهُ اوفر احتفالًا وتعظيمًا من تثبيت هذا الملفان الذي بادرت جميع مراتب الكنيسة لاحتفاء تذكاره حالًا بعد وفاته

وقد تكلّم سنكسار الامبراطور باسيليوس في اليوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني عن يوحنا الدمشقي انهُ قد نفي من القياصرة اشياع البدع وأُلقي في السجن ثم مات بعدئذٍ معترفًا بالايمان

ثم ان القديس اسطفانوس الصغير الذي مات شهيدًا باشدّ الاعذبة لكونه ناصب قسطنطين الزبليّ الاسم ودافع عن اكرام الصور المقدَّسة مدح قبل وفاته تلميذ القديس سابا بقوله « تميّز بين الذين قاوموا الملك الظالم الكاهن يوحنا الدمشقي الذي كان متزينًا بحكمة عجيبة وفائزًا من الشعب بكل اعتبار .

اجلّ ان الزبليّ الاسم لقبهُ بلقب الهجو قاصدًا تحقيره اما نحن فنكرمهُ كقديس وكرجل ممتلئ من روح الله »

الَّا ان اعظم مديح قيل في حقّ قديسنا هذا هو المديح الذي قرظه بهِ آباء المجمع النيقاوي (سنة ٧٨٧) باجماع الاصوات فقد كانت الغاية الوحيدة من التئام هذا المجمع رذل ما كان قد حدّد المجمع الافترائي الذي عقدهُ كوبرونيم . وكان اول ما عملوه انهم صيانةً لوديعة التعليم الالهيّ رشقوا بالحرم ذلك الامبراطور الرديْ والاساقفة الذين شدّدوه على الضلال والطغيان . وبعد ان عظّموا الشهداء والمعترفين بيسوع المسيح الذين ثبتوا على ايمانهم حتى الموت اعطوا للقديس يوحنا المقام الاول في هذه الطغمة قائلين « ان يوحنا الذي سماهُ المبتدعون تهكمًا بمنصور ترك على مثال القديس متى الانجيليّ كل شيء ليلحق بالمخلّص فآثر على غنى مِصر عار الصليب وعلى افراح العالم مشاطرة الشعب المسيحيّ في احزانهِ لحمل صليبهُ مع المسيح ولاجل الدفاع عن دين المسيح نفخ من اقصى الشرق بابواق الحرب لان خباثة التعاليم الحمقاء التي احدثها المبتدعون في القسطنطينية كانت قد سعرت غيظهُ وألهبت غيرتهُ »

ثم عددوا المناضلات التي دافع بها يوحنا عن اكرام الايقونات المقدّسة وانهوا الكلام بقولهم « ليكن ذكر دائم ليوحنا » . وقد لاقى هذا الكلام صدًى في جميع قلوب نصارى المشرق واعترت بهِ الكنيسة اليونانية وما لبثت ان ضمت اسم يوحنا الدمشقي الى سائر قديسيها ودونت تذكاره في الرابع من كانون الاول الذي فيهِ تصنع ايضًا تذكار القديسة بربارة . ولعلّها وفّقت قصدًا بين هذين التذكارين نظرًا للخطاب الاثيل الذي كان قد القاه تلميذ القديس سابقًا في مديح قديسة يكرمها الشرقيون اكرامًا جزيلًا

اما الكنيسة اللاتينية فانها بغاية المسرّة شاطرت اختها الكنيسة اليونانية

اكرام يوحنا الدمشقي ودونت تذكارهُ في سادس ايار لاعتبارها انهُ مات في مثل اليوم المذكور

ثم ان قداسة الحبر الاعظم البابا لاون الثالث عشر الذي لا يدع فرصة الّا اغتنمها ليظهر جزيل محبته وانعطافه لكنائس الشرق قد خصص ليوحنا الدمشقي ملفان البيعة الجامعة قداساً وفرضاً يقالان في يوم التاسع والعشرين من آذار

وقد عُنيت الكنيسة اللاتينية في الفرض والقداس المذكورَين ان تبيّن على الخصوص وفرة المعارف اللاهوتية التي تزيَّن بها هذا القديس والهبة الشعرية التي خُص بها ووفرة حذاقتهِ وذكائهِ في المجادلات ولاسيما قداسته العجيبة. وتذكر بنوع خصوصيّ ايضاً ما اشتعل بهِ قلبه من الاكرام والاحترام للعذراء الجزيلة الرأفة والرحمة ولم تسكت عن اخلاصهِ للكرسي الرسولي ولا عن الكلام الذي نطق بهِ قبل ظهور بدعة فوسيوس بشأن اولية بطرس. فعسى ان يفتح الآذان اخوتنا المنفصلون لهذا الكلام بل لهذا النداء الذي وجهه اليهم احد كبراء ملافنة الكنيسة اليونانية التي كانت وقتئذٍ خاضعةً جميعها لنائب السيد المسيح ومعترفةً برئاسته وزعامته على الكنيسة جمعاء. وعسى ان لا يؤخروا العودة الى تعليم القديس يوحنا الدمشقي الذي هو تعليم جميع الملافنة الذين تقدّموا الانشقاق بل الذي هو تعليم الكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة الرسولية اعني نفس التعليم الذي علمهُ الكلمة المتجسد

وقد تعطّف مجمع الطقوس الروماني المقدّس على الدمشقيين وسمح لهم بان يحتفلوا عيد شفيعهم بما امكنهم من الابهة. فتسهيلاً لادراك هذه الغاية قد منحهم عدّة انعاماتٍ لتنشيط عبادتهم فمن ذلك ان يحتفلوا بعيد القديس يوحنا في معبدهِ المقام لذكره في دير الاباء اليسوعيين حيث كان بيت اجدادهِ في اوّل احدٍ من شهر ايَّار سنويًا وذلك برتبة خاصَّة كما في اعياد مشاهير القديسين ومنها

ايضاً منح غفارين لمن يعترف ويتنـاول القربان الاقدس في ذلك اليوم اكراماً للقـديس المذكور مع تقدمة بعض صلوات على نية الحبر الاعظم واعلاء شأن الكنيسة

هذا ولا نجد ختاماً اصلح لانهـاء هذه الترجمة الوجيزة من الصلاة التي وضعتها الكنيسة المقدّسة في يوم تذكار قديسنا الجليل وهي:

ايها الربّ الازلي الضابط الكل يا من لاجل المدافعـة عن اكرام الصوَر المقدّسة ملأتَ الطوباوي يوحنا تعليماً سماوياً وقوة نفس عجيبة خوّلنا بشفاعته وامثاله ان نقتدي بفضائله ونشعر بحماية الذين نكرم صورهم بيسوع المسيح ربنا امين

لمجد الله الاعظم

فهرس الكتاب

اصلاح خطإ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٧	النفوذ عنهُ خلفاء	النفوذ عند خلفاء
〃	٨	انّهُ كان قال:	قال: انهُ كان

Tar□amat al-qiddīs Yū□annā ad-Dimašqī

Hauka, Lūwīs

Bairūt, 1895